الطبقات الفكرية

تأليف

د . خالد بن محمد عطيه

(ح) ـ خالد محمد أحمد عطيه . ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عطيه، خالد محمد أحمد

الطبقات الفكرية ـ مكة المكرمة .

١٦٠ ص، ٢٣ سم

ردمك : ٢ ـ ٥١١ ـ ٤١ ـ ٩٩٦٠

١- الثقافة ٢- التغير الاجتماعي أ – العنوان

ديوي ٣٠١،٢٤١ ١٥٢٢/ ٢٣

رقم الإيداع : ١٥٢٢ / ٢٣

ردمك : ٢ ـ ٥١١ ـ ٤١ ـ ٩٩٦٠

توزيع : دار الطرفين . الطائف . وادي وج .

ص ب : ٢٥٧٩ . هاتف ٧٣٢٩٥٧٢

جوال : ٠٥٠٥٧٠٤٨٠٨

يتضمن هذا الكتاب :

الباب الأول : الطبقات

الباب الثاني : الفكـــر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق من العدم ووهب النعم وقدّر الخير والشر على ابن آدم والصلاة والسلام على النبي الخاتم والمصطفى المقدّم أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد خير خلق الله أجمعين ومن تبعه بإحسان واهتدى بهديه إلى يوم الدين . ثم :

أما بـــــعـــــد :

فما من مجتمع إلا وهو يتكون من طبقات فيه، وكل طبقة من تلك الطبقات لها منظور ومنطق ومبادئ وأفكار وطريقة عيش مختلفة نسبياً عن غيرها من الطبقات .

وكما أن كل طبقة من تلك الطبقات في المجتمع تهتم بناحية وجانب معين في شؤون حياتها مما يهم المجتمع، فتوصف به، وتدعو إليه .

وليس القصد هنا بالطبقات العنصرية، لا، وإنما طبقات المجتمع المختلفة، فمثلاً العلماء يمثلون طبقة في المجتمع وكذلك المفكرون يمثلون طبقة وكذا الدعاة والأطباء ... وغيرهم من سائر طبقات المجتمع .

وهذا الكتاب يتناول ربما أهم الطبقات المؤثرة في المجتمعات ككل، وهو يتطرق للناحية الفكرية البحتة والتي هي أساس حديثنا ونقطة الارتكاز في هذا الكتاب، مع عدم إغفال الناحيتين الدينية والاجتماعية والتي لا تنفك بطبيعة الحال عن الجانب الفكري .

كما تناول أهم العلوم التي أثرت في منظور تلك الطبقات قديماً وحديثاً، إضافة إلى بعض المواضيع الهامة فكرياً والتي كان لها أيضاً شأن ربما لتغيير نظرة ومنطق أي من تلك الطبقات .

وقد قصدت من وضع هذا الكتاب التوجيه والإرشاد وتصحيح وجهة من أخطأ الطريق وضل عن سبيل الحق، ولذا فإني أنبه لأمر مهم جداً وهو أن الغرض من ذكر طبقات الفصل الأول هو إظهار أخطائهم ومن ثم الرد عليهم وإيضاح الحجج الملزمة لهم لذا وجب الحذر من التأثر بشيء مما ذكر عنهم أو اعتقاد صحة شيء مما قالوه .

وأمر آخر هو لعل مسمى الكتاب ومنهجه الفكري لفت نظر البعض واعتقده عملاً ودعوة فكرية مجردة من المنهج الشرعي، ولذلك أقول ما قرأ من تصفح ومن أراد النفع فليقرأ وليستفد ولا يتصفح وينتقد قبل أن يفهم ويدرك، ومن أراد النفع والفائدة وجد ذلك دون شك .

وأخيراً ولأن النقص كُتب على ابن آدم لا محالة أقول إن أصبت فمن الله وبعد توفيقه سبحانه وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل كل حريص يبتغي النفع والاستفادة منه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

وصلى الله على نبينا وحبيبنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين

المؤلف

الباب الأول : الطبقات

مقدمات

الفصل الأول : طبقات المجتمع المهيمنة

الفصل الثاني : طبقات المجتمع المؤثرة

مدخل :

معلوم أن الناس طبقات مختلفة في كل أمور الحياة، وخلافهم هـذا يرجع إلى أمور كثيرة ومتعددة فمنها البيئة والمنشأ والتربية والمحيط العلمي والاقتصادي والحياة الاجتماعية والفكر السائد والعادات والتقاليد والعرف ومدى التأثر بالمؤثرات الخارجية ومدى الارتباط الديني والعقائدي واحترام المبادئ ومدى تفاعل وسائل الإعلام ودورها فيه وأمور كثيرة واسعة وضيقة النطاق ...

وطبقات الناس الدينية تعد بحسب اعتقادهم وتمسكهم بدينهم، أما الطبقات الإنسانية فهي تعد بحسب نظرتهم وتفاعلهم مع المبادئ وطريقة استخدام العقل وتفكيرهم به .

وقد أورد الشهرستاني في كتابه الملل والنحل تقسيماً لطبقات الناس[1] رأيته مناسباً فأحببت ذكره هنا، وهو:

أولاً ــ طبقات لم تقل لا بالمحسوس ولا المعقول وهم السفسطائيون الذين لا يرون الإنسان إلا مجرد هراء أتى منه وسينتهي إليه، وليس له دور في هذه الحياة ولا جزاء عليه في غيرها .

ثانياً ــ طبقات قالت بالمحسوس فقط دون المعقول، وهم الطبيعيون الذين يرون الإنسان بمنظار أعينهم فقط دون عقولهم، وليس للإنسان حياة غير هذه الدنيا ليعيش فيها كما هي .

---

[1] الملل والنحل، الشهرستاني، ج٢ ص٤ .

ثالثاً ــ طبقات قالت بالمحسوس والمعقول معاً ولكنها لا تعتمد في ذلك على شرائع أو أديان، وهم الفلاسفة الدهريون الذين يرون الإنسان من منظارهم ومبادئهم هم فقط ولا يستمدون ذلك من شريعة أو دين قويم وليس لهم حدود وأحكام يقفون عليها، وعليه فالعقل قائدهم الأول والأخير في هذه الحياة .

رابعاً ــ طبقات قالت بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام دون شريعة ربانية، وهم الصابئة الذين لا يؤمنون بالشرائع والأديان ولا ينتمون إلىأيٍ منها .

خامساً ــ طبقات قالت بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام وبالشرائع والأديان (كاليهود والنصارى والمجوس) ولكنهم لا يقرون بوحدة الأديان ووحدة منطلقها ولا يقرون بالنسخ بين الشرائع فلا شريعة ناسخة لأخرى عندهم بل يفرقون بينها وكذا يفرقون بين الأنبياء .

سادساً ــ طبقات قالت بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام والشرائع والأديان وأمنوا بأن الأديان منطلقها ومبعثها ودعوتها واحدة وهي إلى الله تعالى، وهم المسلمون المؤمنون بالله تعالى والذين هم على دينه الصحيح .

وسنتطرق هنا لذكر أهم الطبقات ومن خلال عدة نقاط، وستكون محاور نقاشنا هي الجوانب الدينية والفكرية والواقعية .

مقدمات :

يجدر بالقارئ الكريم قبل خوض غمار هذا الكتاب، فهم مدلول هذه الكلمات المهمة، التي تسهل عليه إطلاعه ليكون مثمراً وقيماً :

المجتمع ـــ هو العالم المحيط بالإنسان وله نظام وديـــن وحضـــارة وفلسفة مستقلة عن غيره بكل أناسيِّه، وهو يعتبر محيطاً متكاملاً .

المعتقد ـــ هو إحساس بالطمأنينة للشيء والفهم له والقناعة به على أنه حقيقة فاستوعبه العقل بالقبول التام .

الوضع ـــ هو حالة مؤقتة لشيء معين على شكل معـــين يتخـــذه ويوصف به ويعامل بما يقتضيه .

الموضوعية ـــ هو بحث الموضوع بجديه تامة دون تحيز، ونقاش كـــل نقاطه بدقة تامة دون التأثر بأحد جوانبه أو نواحيه أو الميل لأحدها .

المنطق ـــ هو حدود العقل البشري وما يقع في حيزه من تفكير سليم وإمكانية وواقعية مسلّم بهما بعيدة تماماً عن الخيال .

الواقع ـــ هو كل ما يعاصره الإنسان كحقيقة موجودة سواءً كانت دائمة أم مؤقتة، وللإنسان بها تأثير وتعامل .

المنطلق ـــ هو البداية التي يرتكز عليها الإنسان لتحقيق مراده، وهو يتناسب مع جوانب الهدف والوصول إليه بأفضل الطرق حسب طاقـــة ومدى الإحاطة بالهدف .

الغرض ـــ هو توضيح المعنى المراد من الشيء وبيان مدى الحاجة إليه وقدر التعامل معه بحسب الاحتياج له .

المبدأ ــ هو اعتقاد سليم أو غير سليم راسخ في النفس والقلب نشأ من ظروف معينة ومدى فهمها والتأثر بها، يتحول مع الوقت كأساس لتلك الشخصية وربما كان مبدءاً عاماً وربما كان مبدءاً خاصاً .

المؤثر ــ هو دخيل خارجي يطرأ على الشيء فيجعله يغير خط سيره وبالتالي تتغير نتائجه حسب نوع المؤثر ودرجة التأثير .

المنشأ ــ هو طريقة الأخذ منذ البدء للمبادئ والأصول الاجتماعية للشخص وأساليب ذلك ومدى صحته، أو هو الجو المصاحب للتلقي لدى الإنسان منذ الصغر .

الطبقة ــ هي مستوى معين من الناس تجمعهم صفة معينه ولهم ميزات وطبائع وعلامات تفرقهم عن غيرهم .

الشعور واللا شعور ــ هي حالة إدراك الإنسان بأحاسيسه لكل ما في المحيط الذي حوله وشعوره عما بداخله .

أما حالة اللا شعور فهي حالة عدم إدراك الإنسان بأحاسيسه لما بداخله، وهي عادة تعتبر غوامض لا يستطيع الكشف عنها، بل ويتصرف الإنسان وهو لا يعلم أن تلك الصفات موجودة فيه .

الفعّال ــ هو الشيء القوي التركيز الذي له دور بارز واضح المعالم وظاهر الأثر فيما سواه .

الدافع ــ هو السبب الذي يجعل الإنسان يقوم بتصرف ما، وهو إما فطري طبيعي وإما مكتسب من المحيط .

الغريزة ــ هي الميل النفسي الفطري الموجود في الإنسان، وهذه الغرائز تعتبر من أساس تكوين الإنسان .

يجب أن نعلم أن كل تلك الأمور التي قد وردت معنا قد تكون عرقية أو فكرية أو دينية أو شخصية أو غير ذلك، والذي يحددها غالباً تأثر طرق الاتصال البشري بالعالم الخارجي المحيط بالإنسان .

حقيقة الفكر :

الفكر هو أساس التعامل العقلي بين البشر، وكل شخص له فكر وطريقة تفكير معينة من خلالها يتعامل مع غيره، وهذه الطريقة والأسلوب في التفكير من خلالها تتكوّن شخصية الفرد .

وكل طبقة من طبقات المجتمع تتميز عن غيرها بجانب فكري وذلك بحسب منظورها وبناءً على منطلقها ومنهجها وتفسيرها للظواهر والأمور في الحياة كلها .

والتباين الفكري حاصل بين كل شخصين من الناس، وهو ولا شك موجود وبشكل أكبر بين أي طبقتين من طبقات المجتمع .

ومن باب التباين الفكري كان خلاف الناس واقعاً ومؤكداً في الكثير من الأمور العقلية الفكرية، وهو خلاف مرجعه تباين وجهات النظر واختلاف الناس في تقدير الأمور ومدى التأثر بالمؤثرات وحسب الطبائع والنفسيات، وهو خلاف لا دخل للأفضلية فيه لأن الأصل في ترجيح الأمور الفكرية مبناه على الخلاف، فكيف "الخلاف يرجح خلاف" أي أن اختلاف الناس في النظر للأمور العقلية لا يرجحه خلاف الرؤى .

طرق الاتصال بالعالم الخارجي

هناك (٤) طرق لاتصـــال الإنسان بالعالم الخارجي المحيط بـــه هي (العقل والقلب والنفس والجوارح) .

أولاً ــ العقل : وهو محور التفكير واتخاذ القرارات و"محل العقلانية" والتي هي دلالة إدراك العقل للحقائق، وبالعقل يرتبط الإنسان بمن حولـــه ارتباط مصلحه وباعتبار كل ما هو صحيح ومعقول، وللعقـــل حـــدود وموازين لا يستطيع التفكير إلا في نطاقها وليس له القدرة على تخطيها أو الخروج عنها والوصول إلى فكر خارجها، وإن ثمة ذلك فهو يعـــد مـــن اللامعقول .

ثانياً ــ القلب : وهو محل العاطفة ومنبع "الشعور والأحاســـيس" والتي هي دلالة معرفة القلب للحقائق، وبالقلب يرتبط الإنسان بمن حوله ارتباط عاطفة وميل وحنان، وهو يزيد وينقص حســـب التوافـــق بـــين القلوب، وشعور القلب محدودة فيه ويستطيع اكتسابها أو فقدها بزيادة أو نقصان حسب مدى التوافق .

ثالثاً ــ النفس : وهي مركز الرغبات والشهوات والغرائز الإنسانية و"الاحتياج" والتي هي دلالة النفس لبلوغ الحقائق، ومنها يرتبط الإنسان بمن حوله ارتباط علة، حسب تحقيق تلك الرغبات والوصول إليها بـــأي طريقة وبأي أسلوب كان . ورغبات وحاجيات النفس لا تنتهي ما دامت روح الإنسان تسري فيه بل هي في ازدياد مستمر مع طموح الإنسان ما دام حياً .

رابعاً ــ الجوارح : وهي الأعضاء التي يترجم الإنسان بها ما بداخله سواءً من تفكير بعقله أو شعور بقلبه أو رغبة في نفسه، والجوارح هي أعضاء التنفيذ فقط لشيء مسبق في العقل أو القلب أو النفس أو بها مجتمعة أو باثنين منهما، فهي لا تستطيع القيام بعمل من لدنها .

شخصية الإنسان :

يقصد بكلمة (الشخصية) أنها الكيان المستقل المنفرد بذاته، وهناك أمور تجعل الإنسان ذا فردية وكيان مستقل وذا سلوك متميز به عن غيره، وهي :

١- العقل الذي به يفكر الإنسان ويخط له طريقة تفكير مستقلة به، فبتعامله مع الناس تنكشف طريقة وأساليب تفكير الشخص . والإنسان يتعامل مع الناس بعقله وبحسب طريقة تفكيره .

٢- القلب الذي به يشعر ويحس ويمثل عاطفته تجاه الغير ومدى تقبله للأمور وردها وكذا موقف الشخص من الأشياء . والإنسان يتعامل مع الناس بقلبه بحسب شعوره نحوهم .

٣- النفس التي بها تحقق الرغبات والشهوات وتحدد عواملها وحالاتها وجوانبها . والإنسان يتعامل مع الناس لما بنفسه وبحسب رغباته .

٤- الجوارح التي بها يترجم عن كل ما بداخله، وبها يكون التعامل مع المجتمع . والإنسان يتعامل مع الناس بجوارحه بحسب ما يدور بعقله أو قلبه أو نفسه، وبالكيفية التي بها يترجم تعامله مع الناس تتكون شخصية الفرد .

العوامل المؤثرة :

وهناك عوامل تؤثر في شخصية الإنسان وفي نفس الوقت تعد هي نفسها العوامل التي تبني كيان الإنسان وتكون شخصيته المستقلة :

١- العوامل المحيطة : وهي العوامل الاجتماعية والبيئية التي تحيط بالإنسان والتي نشأ فيها وتربى وسطها، فأثرت على منهجية حياته .

٢- العوامل التكوينية الداخلية : وهي العوامل التي بداخل الإنسان من أفكار وشعور ورغبات . والتي جعلت الإنسان ينظر من خلالها للعالم بحسب ما يراه ويكنه بداخله، مستمداً ومعتمداً على طرق اتصاله بالعالم الخارجي التي ذكرت سابقاً .

٣- العوامل الجسمية : وهي عوامل مرحلة النمو الجسمي منذ الصغر وحتى حاضر الإنسان . والتي أثرت على مدى قابلية الإنسان ومدى تعايشه مع المجتمع واندماجه فيه .

٤- العوامل الخارجية : وهي كل المؤثرات الخارجية والتي تؤثر في الإنسان وطريقة تفكيره، وبالجملة فهي تشمل العوامل التربوية التي تربى عليها الإنسان والعوامل الطارئة التي تطرأ عليه في حياته .

رقي الشخصية :

وكل شخصية تسعى وتبحث عن الكمال في ذاتها وتحاول أن تكون هي الأفضل من غيرها في كل تصرفاتها، ولكي يكون ذلك ويتحقق، يجب عليها أن تسعى للوصول إلى المطالب العالية الصافية النابعة من العقل والقلب والنفس (السليمة) ثم الجوارح المستقيمة، المستمدة منهجها من

مقتضى الدين الصحيح، مع البعد عن المؤثرات الخارجية والمبادئ والأصول والقيم والأفكار الخارجية الخاطئة والمغرضة .

وأي شخصية تحاول أن تصل إلى هذه المطالب العليا بعيداً عن دين الله تعالى وشريعته هي شخصية واهمة ومتخبطة في دروب الهواجس والوساوس، فهي لا ترى الحق المعين والنور المبين الذي يشع على الجميع ليصلوا إلى أفضل حياةٍ سعيدة في الدنيا ومن ثم الآخرة، في ظل الإسلام وبتطبيق الشريعة السمحة .

الشخصية الكاملة "العظمة الإنسانية" :

بحث الإنسان قديماً وعلى مر الزمان عن الحياة الفاضلة السعيدة وذلك للوصول إلى السعادة في هذه الدنيا، وكان في كل مجتمع وقوم من يفكر لهم ويحاول أن يوصلهم إلىبر تلك الحياة السعيدة المنشودة .

وكان الفلاسفة القدماء والمفكرون والحكماء دوماً يبحثون في كل جنبات الكون ويحاولون الوصول إلى قيم تلك الحياة والى الأفكار والمبادئ والمعتقدات الفاضلة الخيرة النبيلة، والكل منهم كان يحاول الوصول إلى منزلة الكمال البشري في نفسه .

ولكن ومع أن هدف الجميع كان هو الوصول إلى تلك الحياة إلا إن أساليبهم وطرقهم في البحث عنها اختلفت وطريقة تفكيرهم تباينت ونظرهم للأمور تنوعت وفهمهم لحقيقتها لم تكن واحدة، فكان لكل منهم منطق وفلسفة ومنظور ومفهوم ومعتقد .

وكل ذلك كان لسبب واحد وهو أن أولئك الذين بحثوا عن الحياة السعيدة بحثوا عنها في مدركات عقولهم الآنية وأحاسيس قلوبهم الوقتية واكتفو بذلك فقط و لم يُعيروا جانب الدين والشرائع الربانية أدنى قيمة أو أهمية في الموضوع وأغفلوا كل الإغفال أهمية وضرورة وجود الدين في حياة الإنسان وتأثيره عليه، ومن هنا كان سبب خلافهم وخطأهم في الطريق الذي سلكوه، ومن ثم عدم وصولهم إلى تلك الحياة المنشودة .

وعليه فلا بد من معرفة أن أساس الوصول إلى الحياة الفاضلة السعيدة يكمن في اتباع الشرع القويم وتعاليم الدين القيم .

ولذلك فقد اعتبرت فترة النبوة والخلافة الراشدة والتي قدرت بحوالي (٣٠) سنة فقط من عمر الإنسانية جمعاء اعتبرت هذه الفترة وعلى مر التأريخ والعصور ومنذ خلق آدم عليه السلام والى قيام الساعة فترة "العظمة الإنسانية" وهي الفترة التي وصل الإنسان فيها إلى أعلى درجات الطهر والنقاء والقيم والأخلاق والى أوج الكمال البشري الاخلاقي إطلاقاً والذي لم ولن يسبق له مثيل .

وقد تحقق في ذلك المجتمع المسلم في تلك الفترة خير نظم الحياة وأفضل أساليب التعامل وأرقى سبل العيش وأعلى درجات العفة والتضحية والإيثار والفضائل والأخلاق والقيم . وعاش في ذلك المجتمع في تلك الفترة خير رجال وطئوا الثرى، جيل لم تعرف الإنسانية مثيله أبداً، قوم عرفوا حقيقة الدنيا فلم يغتروا بها وكان عيشهم هنيئاً وسعيهم طريقاً يقودهم إلى الجنة .

ولم تعرف الإنسانية جمعاء كمالاً بشرياً في جميع نواحي الحياة تحقق في فرد كما تحقق في شخص النبي محمد ﷺ سيد الخلق أجمعين، ثم صحابته الكرام الأخيار الذين أخذوا عنه كمال الأخلاق والفضائل ثم تابعيهم من بعدهم والذين اقتدوا بهم ثم تابعي تابعيهم وهكذا . وكان كل جيل أقل شأناً من سابقه في كل مجالات الحياة الفضلى والقيم العليا، والتي وللأسف هي في نقصان مستمر مع مرور الزمن ...

وقد كانت تلك الفترة وقتاً فريداً من نوعه لا يتكرر ولمحة من لمح التأريخ المضيئة والتي لن تعود أبداً، ولذلك وجب على المسلمين بل على الإنسانية أجمع أن تجعل من تلك الفترة ومن أولئك الرجال العظام قدوة وأسوة حسنة يقتفى أثرها إذا أرادوا الوصول إلى العظمة الإنسانية والكمال البشري كما وصل أولئك القوم النبلاء .

ومعلوم أن العالم كله منذ خلق آدم عليه السلام وهو يبحث دوماً عن الحياة الفاضلة السعيدة، وكان ولا يزال فلاسفة ومفكرون وحكماء وعلماء ومربو العالم في كل وقت وحين وفي كل مجتمع ينظِّرون ويصوغون ويضعون الفلسفات والأفكار والمبادئ ليصلوا إلى ذلك الحد المطلوب والهدف المرغوب، ولكن هيهات هيهات أن يصلوا إلى شيء من تلك القيم العظمى والمثل العليا بمبادئهم تلك وبأفكارهم وقيمهم وتعاملهم وطرقهم الركيكة التي يعتمدونها منهجاً لهم .

لماذا، لأن شرف العظمة الإنسانية ومنزلة الكمال البشري التي أدركها أولئك القوم كان سببه متعلقاً بمدى تمسكهم بشرع الله القويم

وصراطه المستقيم ودينه الحنيف، هذا هو السبب الذي بلغ به أولئك القوم تلك المنزلة الرفيعة والمقام العالي، وهو نفسه السبب الذي أوصل بقية الأقوام في الأرض إلى حيث الحضيض والوهن والدنائة الخلقية لما أهملوا جانب الدين وتهاونوا بشرع الله القويم فبدلاً من أن يتمسكوا ويعتصموا به تركوه وأهملوه بل وأبدلوه بالقوانين والأنظمة الوضعية التي تخالف شرعه وتنقض عرى الإيمان عروة عروة . فكيف يا ترى يستوي من يرى الرفعة والسمو في تطبيق أمر الله تعالى وإقامة شرعه القويم ومن يرى أن في تطبيق دين الله تعالى وإقامة شرعه تكليف وإرهاق وجب البعد عنه ...

استيعاب الغير :

في الآونة الأخيرة من الزمن ولما قصُرت الأفهام وقل الوعي وغابت النزاهة والمصداقية وقوة الشخصية أصبح من الصعب على الكثير من الناس أن يستوعب غيره وبالأخص ممن يخالفه الرأي، وهذا التوجه هو الذي أوجد الكثير من المفارقات بين النزاهة والانصاف والرجاحة وبين حب الذات والتمسك بالرأي مهما كان . وهذا المفهوم وللأسف فرّق في الحقيقة بين الكثير ممن يدعي الفهم، أما الشخص الواعي ذو العقل الراجح فهو يدرك وخامة هذا الأمر ويقدّر له قدره ولا يقع فيه ما استطاع ...

فالكثير يرى في نفسه الكمال ويريد أن يفرض ما يراه ويعتقده على غيره من الناس وليس لديه أدنى استعداد ليتقبل من غيره أي شيء وهو في هذه الحالة يريد أن يملي أوامر لا نقاش فيها ولا جدال .، فإذا كان كل

إنسان يفكر بهده الطريقة فمن يا ترى سيكون الطرف الآخر الذي سيتقبل تلك الأوامر .

إذن فالرجل ذو الشخصية المتزنة والفكر النير السليم والعقلية القوية والمقصد الحسن والوعي والنباهة هو وحده الذي يستطيع أن يستوعب غيره وأن يقترب منه . وعكسه تماماً من ضعفاء العقول ضيفي الأفق أصحاب النظرة التشاؤمية غالباً هم الذين يرون العلو والسمو لذواتهم وفي أنفسهم ومع ذلك فهم كثير في مجتمعاتنا اليوم وللأسف، مهما بلغوا من مكانة ومناصب ومهما حصلوا عليه من درجات وألقاب ومسميات ...

إدراك الحقائق :

هناك عدة طرق لإدراك الحقائق، والحقائق موجودة في كل نفس بشرية لا ينازعها شك ولا ريبة، وذلك الوجود في الإنسان هو من حكمة الله تعالى ومن دلائل وحدانيته، إذ وضعها سبحانه في كل المخلوقات بنفس المعايير والمقادير . والإنسان عندما بدأ يبحث في الكون عن خالقه وموجده والهدف من ذلك أخذ يدرك الحقائق بعدة طرق :

الطرق الصحيحة : التي توصل الإنسان إلى الحقائق بالصورة المنطقية المعقولة والمقبولة، وهي :

١– العقل السليم : وهو أداة التفكير لدى الإنسان الذي به يدرك كل حقيقة موجودة دون شك أو ريبة حتى وإن قوبلت بالإنكار والاستنكاف إلا إن حقيقة الأشياء موجودة في باطنه ومتأصلة فيه .

وهذه الحقائق التي يدركها العقل لما بدأ يبحث عنها، إنما هي مفاتيح للحقائق التي بها يعلم الإنسان كيفية وجوده والهدف من ذلك، وهي تحتاج للشرائع الربانية وللدين لتكملها ولتسير على نهجها فيحصل بذلك كمال المنهج والسعادة التامة للإنسان في الحياة الدنيا .

٢- الفطرة السوية : وهي قيم وثوابت ومبادئ راسخة يجدها كل إنسان بداخله، تجعله يتصرف بطريقة ما، كما لو كان يسير على منهج مرسوم له يراه بعينه، تدله على كل خير وحق وبر كالعدل والاعتدال والإنصاف والمساواة والنزاهة . ودلالتها شعور قلبي يشير إلى التصديق بالحقائق والإيمان بها والعمل بمقتضاها .

٣- الحس الصافي : وهو صوت الضمير الذي ينبعث من أعماق الإنسان ولو لم يستطيع تفسيره أو إدراك مصدره، كالتساؤلات النفسية ومحاولات مخاطبة الذات والحدس والبصيرة التي تدفعه للتفاعل مع الأمور على نحو يجده يلامس الحقائق، فتطمئن له النفس وتستكين .

٤- الشرائع الربانية : وهي التي تعتبر خاتمة مجال بحث الإنسان لكل ما يريد معرفته والوصول إليه بكل الأدوات والطرق السابقة، وهي بذلك الطريق الأمثل والأقصر لمعرفة الإنسان الغرض الذي من أجله وجد، ومن ثم معرفة بعض مما في الكون من مظاهر قدرة وإعجاز وعظمة للخالق العظيم سبحانه وتعالى .

الطرق غير الصحيحة : التي قد تجعل الإنسان يتوه فيها ويضل من حيث أراد الرشاد، وباتالي فلن يصل إلى نهاية سعيدة مطلقاً، وهي :

١- إلغاء صوت العقل : وهي من أفظع الطرق الخاطئة على الإطلاق، لأن الإنسان متى ألغى منهج العقل يكون قد خرج من دائرة الإنسانية إلى دائرة هي دون دائرة البهائم، فلا يعقل حينها ولا يفهم ولا يفكر وتلك هي أدنى رتبة ولا ريب، فكيف يرضى ذلك لنفسه .

٢- إلغاء معالم الفطرة : لأن تجاهل المعالم المجبول عليها تبدأ تجرده مع الوقت من قيم الإنسانية فلا يحس ولا يستشعر كالجماد، فتضمحل معالم الفطرة من داخله، ولا سيما متى نشأ في مجتمع لا ديني أو مجتمع ذي دين محرف أو فلسفة مزيفة، تبدأ تتحور نظرته للأمور غالباً من الصواب إلى الخطأ ومن الحق إلى الباطل، لما للتربية من دور كبير في رسم طريقة معيشة الفرد في مجتمعه سواء كان في الماضي أم في المستقبل .

٣- إلغاء معنى الحس : لأن إلغاء معنى الحس يجعل الإنسان كما لو أنه أغمض عينيه فلا يرى، وصم أذنيه فلا يسمع، وفقد القدرة على التمييز فلا يدرك غايات الأمور، ولا يفرق بين الصواب والخطأ، كالآلة التي لا تعي ما تصنع، ولا معنى عندها لأي شئ .

٤- الآراء والأفكار الشخصية : وهي كل فكرة أستحسنها صاحبها أو اعتقد صحتها بعد أن قطع به وجزم بصوابها، ومن ثم صار ينادي إليها وحاول أن يعممها بل ويجعل من فكرته تلك منهجاً سائداً للجميع، وفي حقيقة أمرها قد تكون مخالفة للأصول والمبادئ، فما من رأي وإلا وهو ينبع من أفكار واعتقادات تأثر بها الإنسان وأثرت فيه وحاول بعد ذلك أن يصوغها في نظم وأُطُر له وربما لغيره .

وبالجملة فالعقل والفطرة والحس هي أدوات أولية لإدراك الإنسان الحقائق بها ومضامين الأشياء، ولكنها ليست أدوات كافية لإدراك معنى الحقائق الكلي فهي تعد خديجة من دون الشرع وطرق ناقصة لا تبلغ الحد المراد، فالشرع هو الطريقة الوحيدة التي تغني الإنسان للوصول إلى الحقائق عما سواها من الطرق، وليس للإنسان أن يستغني عن الشرع بأي من تلك الطرق، بل على العكس من ذلك تماماً إذ للفرد أن يستغني بطرق الدين والشرع عن غيره من تلك الطرق .

منهج الحقائق :

كل حقيقة لها وجود مسبق في أصل الإنسان، إذ كل حقيقة مستمدة من الله تعالى وحكمته في خلقه، لأنه سبحانه خلقهم وجعل فيهم ما يدلهم على إدراك الحق والحقائق في الكون كله .

وجعلهم يعلمون من أعماقهم أن تلك الحقائق هي أفضل الحقائق جملة وتفصيلاً، وأفضل سبل يسلكها الإنسان للوصول إلى السعادة في الدارين والتي من أجلها جعل في الأرض، فكل ما أدركه العقل والحس والفطرة من الحقائق أكملها الشرع وأمر بها الدين لما فيها من نفع وخير حاصل .

الدين والحقائق :

كل الرسالات السماوية منبعها واحد، وهي تدعو إلى حقيقة واحدة من أجلها كانت وجعلت، وإن كان هناك اختلاف في منهج كل منها .

وقد جعل الله تعالى الدين ليطبق الإنسان شـــرعه القـــويم في الأرض ويترك ما سواه من أفكار ومعتقدات غير منطقية (عقلية) .

وفي الواقع إن في إقامة الدين وشرائعه إنما هو في حد ذاتـــه إقامـــة للحقائق وفهماً لها دون عناء أو تعب، وذلك لأن تطبيق الدين وشـــرائعه هي الطريقة المثلى الدالة على الحقائق دون الحاجة لبحث أو إجهاد فكـــر أو نظر فاحص في الكون، وذلك لأن نظام الكون واحد متناسق ودين الله تعالى واحد دال على ذلك .

والدين نظام محكم متكامل من لدن مشرع حكيم خبير، إذ أن كل إنسان لا يمكن له أن يعيش دون دين يعتنقه ويطبق نظامـــه ومنهجـــه في حياته، ونظام الإسلام (الدين الرباني) هو أفضل نظام للحياة البشرية على الإطلاق، وليس لأحد الخروج عن مداه، ومنطلقه فهو دين شامل وعـــام لكل نواحي وجنبات الحياة وبكل صورها .

والدين الرباني تشريع من خالق متعال لكل خلقه فالكل عنده سواء ودينه واحد للجميع وكلهم تحت نظامه بمقدار واحد ومنظوره لهم بدرجة واحدة، فلا فرق بين الخلق إلا في مدى تطبيق تعاليم الدين الصحيح دون تفريط أو تهاون، ومن ثم التمسك به .

وكل الأدوات الدالة على الحقائق من العقل والفطرة والحـــس هـــي موجودة في كل إنسان بنفس المقدار، وكل إنسان خاضع لها متأثر بهـــا وبما يجده في نفسه منها غير أنه سريع التحول والتأثر بما وبمن حوله مـــن الأشياء، ولا سيما التربية والتنشئة على الفرد في مجتمعه .

وقد مر الإنسان منذ وجد على الأرض بعدة مراحل وتطورات عبر حياته وسني عمره جعلت من مصلحته اختلاف تكاليف الدين والشرائع والمناهج الربانية وذلك لتراعي مقتضى الحال والمصلحة الحاصلة في كل زمن حسب حاجيات أهله .

وهذا لا يعني أن دين الله تعالى تغير وتبدل بل هو دين واحد كان وما يزال باقياً إلى يوم القيامة ومنطلقه ومقصده واحد، وإن اختلفت الرسالات والمناهج والشرائع، إذ أن لكل قوم شريعة ومنهج خاص بهم وبزمانهم لا تتعداهم إلى غيرهم، حتى كانت الرسالة المحمدية بمنهجها السمح السهل، والتي جعلت ناسخة للرسالات وخاتمة وعامة لجميع البشر حتى قيام الساعة، إذ أن كل رسالة تندرج في مضمون الدين الشامل الذي هو نبع الحقائق والدال عليها .

وعلى اختلاف الرسالات السماوية والشرائع الربانية إلا إن جميعها من عنده سبحانه، وداخلة ضمن المنهج الإلهي القويم، كلٌ منها خاصة بقوم دون غيرهم ومؤقتة تنتهي بموت النبي، حتى كانت شريعة الإسلام الخاتمة، المستمرة إلى قيام الساعة لذا جعلها تعالى سمحة سهلة التكاليف لأنها ستواجه تغير الزمن واختلاف الأحوال تراعي مقتضى الحال .

حرية الرأي :

الدين شريعة سمحة من عند الله تعالى يجب أن تقابل بكل قداسة واحترام وتعظيم بالغ لكل أحكامه وحدوده، وذلك لأنه من عند الله تعالى وهو منزل ليعمل به البشر ويطبقونه فيما بينهم .

وأحكام وحدود الدين هي ليست قوانين وأنظمة ولوائح ومواد من وضع البشر يمكن للبعض تجاوزها وتخطيها بأي حجة كانت .

ولذلك ومن هذا الباب عُلم وبدون شك أو مماراة في الأمر أن الدين ليس بالرأي ولا بالتفكير المحض ولا بوجهات النظر بل بالعمل والتطبيق والإتباع للشرع القويم .

ولكن وللأسف ابتلي المسلمون مؤخراً وفي الفترة الماضية وحوالي قبل "٥٠" سنة مضت وإلى اليوم بمفهوم خاطئ وخطير غيّر مسار الكثير من المفاهيم والمبادئ والقيم والأفكار السليمة الصحيحة الحقيقة في المجتمع وهو مفهوم (حرية الرأي والكلمة) أو مفهوم (وجهات النظر) فمنذ متى كان الدين بالرأي .

وأصبح الكثير من الناس يعتقد أنه يسعه أن يحكم برأيه في الدين ويسعه أن يفسر الكثير من الظواهر والمبادئ والمفاهيم والقيم وكأن الدين بالرأي وبالتفكير المحض وبوجهات النظر وبالآراء الشخصية .

ومن هذا المنطلق كثر القائلون برأيهم وقَلَّ المتبعون للدين والشرع القويم، وكثر المفكرون بعقولهم الذين أهملوا جانب الدين تماماً، وصار الكل يريد أن يتكلم والكل يريد أن يحكم والكل يريد أن يختار والكل يريد أن يقرر والكل يريد أن يستعرض رأيه والكل يريد أن يناقش والكل مدعياً الفهم، وكل ذلك ليس من الدين في شيء وصدق رسول الله ﷺ حينما ذكر أشراط الساعة فذكر منها (**إنها ستأتي على الناس سنون**

خداعة ــ حتى قال **ــ وينطق فيه الرويبضة، قيل : وما الرويبضة ؟ قال : السفيه يتكلم في أمر العامة)**[1]، وفي رواية : **(الرجل التافه)** .

وقد قصد بذلك ﷺ أن سفيه القوم الذي لم يؤدِ شيئاً مما كلف به من أمور الدين الواجبة عليه يتكلم في أمور المسلمين وما يهمهم من أمور يريد بذلك صلاحاً لها في حين هو لم يصلح من شأن نفسه أولاً ويشغلها بذلك ولو على أقل تقدير .

وبالتالي كانت نتيجة هذا المفهوم الخاطيء والهدام والذي ابتلي به المسلمون أن تمزقت كلمتهم وتفرق جمعهم وتشتت شملهم واختلفت طرائق تفكيرهم وتباينت وجهات نظرهم .

والمحصلة النهائية كانت أنه تم تجاوز الأحكام والحدود الشرعية وتم تخطي مكانة قداسة الدين وتعظيمه الرفيعة واعتمد الرأي مكان الحكم والحد الشرعي وإبدال الحكم الشرعي بالقانون والنظام الوضعي .

ولذلك كان مفهوم حرية الكلمة أو حرية الرأي أو وجهات النظر مفهوماً ساعد في إقصاء الدين والشرع القويم من الساحة الإسلامية وساهم في إحلال القوانين والأنظمة الوضعية المستحسنة في أعين ذويها في الكثير من المجتمعات . فكانت حرية الرأي سبباً رئيساً في اختلاف الكلمة وكانت وجهات النظر عاملاً من عوامل إذابة الدين وشرائعه وحافزاً لإيجاد القانون الوضعي، وبالجملة ساعدت على تلبيس الحقائق .

---

[1] رواه ابن ماجه وأحمد واللفظ له والحاكم والبزار والطبراني في المعجمين الأوسط والكبير .

وما كان ذلك ليحصل إلا لما ترك المسلمون اعتماد النص الشرعي وأخذوا بآرائهم ووجهات نظرهم فتركوا ما أُمرُوا به وفعلوا ما لم يُأمروا به جهلاً وتعدياً وجراءة منهم على دين الله تعالى سبحانه .

الواقعية :

كلمة الواقعية مأخوذة من الواقع وهو الحاضر المعايش، وكل ما طابق الواقع هو من الواقعية المحتمة، والواقعية هي كل أمر أو موضوع بحث في حدود الزمن المعايش، مع البحث الجاد بأسلوب أقرب ما يكون إلى الصواب والحقيقة ودون الخروج إلى نطاق الاحتمالات والفرضيات .

ولهذه الكلمة متطلبات وضوابط هي :

١- البحث الموضوعي الدقيق ودون تحيز .

٢- عدم الاعتماد على الاحتمالات والفرضيات .

٣- التفكير حسب مقتضيات الواقع وحيثياته .

٤- مراعاة الأصول الثابتة والتماشي بمقتضياتها، وهي العقل السليم والفطرة السوية والحس الصافي والشرع الإلهي، والبعد عن التأثر بالأفكار والمبادئ الفاسدة الملوثة ولا سيما الممزوجة بالفلسفات والمبادئ والأفكار والمعتقدات اللادينية .

٥- موافقة الواقعية للحقائق وأن الواقع الخاطئ وجب تغييره إلى الواقع الصحيح الموافق للحقائق .

٦- الواقعية كلمة تطلق على الواقع إجمالاً، صحيحاً كان أم خاطئاً، ولذلك فيجب ضبط حدودها، وذلك لكي يكون تصرفها يخضع للحقيقة

ووجوب تغيير الخطأ، إذ لا ينبغي أن نسلم للواقع الخاطئ دون محاولة الوصول إلى الحقائق والى القيم الصحيحة .

البحث عن الواقعية :

هذه الكلمة لا يمكن حصر مدلولاتها، فهي كلمة تدل على الحال المعاصر فقط إذ لا تتعدى إلى كونها حكماً على شيء .

وعلى المجتمع عموماً إصلاح وضعه كله، ودراسة كيفية تغييره إلى الأحسن، لكل ما من شأنه رقي المجتمع ورفعته، وصولاً للحقائق المطلقة في هذه الحياة، وفهم الهدف الأسمى من وجودنا فيها، كل ذلك يسمى بـ (فقه الواقع) .

إذن لا حقيقة إلا ما طابقت الواقع ولا واقع خاطئ لوجوب التخلص منه وتغييره بواقع صحيح سليم، فالواقعية معتمدة على ملامسة الواقع ومسايرته، ومسايرته تقتضي التمسك بالأصول الشرعية (منهج الدين القويم) وعدم الخروج عنها . إذن فهي مدلولات يكمل بعضها بعضاً، وجميعها دالة على الحقيقة العظمى .

دور التربية :

التربية هي التنشئة والأساس الذي ينظم سلوك الأبناء بحفظ طاقاتهم وقدراتهم وتوجيهها التوجيه السليم .

ومن أهم ضوابط التربية الذي وجب تحققه في أهدافها هو زرع حب الخير والفضائل والخصال الحسنة والمبادئ والمفاهيم والقيم السليمة القويمة وتعظيمها في نفسية الطفل حتى يألفها ومن ثم ينشأ عليها .

وكل مجتمع له ولا شك سلوكيات ومن ثم أهداف من التربية، وهي التي تحدد هوية المجتمع ومعرفة مدى الهدف من التربية من خلال منظوره، لأن الفرد يتأثر بالبيئة التي تربى فيها والمجتمع الذي عاش فيه وترعرع تأثراً عميقاً .

وكما وجب الحذر من أصوات التربية التي تدعوا إلى التربية العامة المختلطة (اختلاط القيم والمفاهيم والمبادئ ولا سيما المعارضة للدين أو الخارجة عنه أو عليه) المشوبة بأفكار فاسدة ومذاهب وآراء خاطئة وغير منهجية في الحقيقة .

وإذا عُلم أن التربية هي سلاح قوي وفعّال في التأسيس والتقويم ومن ثم في إنتاج الجيل الصالح وجب أن تكون أصولها صحيحة سليمة قويمة مستمدة من الشرع القويم ...

الفصل الأول : طبقات المجتمع المهيمنة

١- الفلاسفة

٢- الملاحدة (الماديون . الروحانيون)

٣- المشركون

٤- الحلوليون

النظريات في غياب الدين :

علم الإنسان قديماً أنه ليس المخلوق الوحيد في هذا الكون، ولكنه علم أيضاً أنه هو المخلوق الوحيد الذي يعقل ويفهم ويدرك ويفكر ويستطيع أن يغيّر ما حوله، وعلم أيضاً أن حياته مليئة بالأمور الهامة وعلى رأسها أمر الدين وذلك لأنه محتاج له دون شك، ففكر لمن يجب أن يكون ولاؤه وطاعته وعبادته ومن يجب عليه أن يقدس ويعظم ولمن يكون توجهه واعتصامه حال الخوف والفزع وحال الحاجة وحال الضعف وحال المرض وحال الجوع وفي جميع الأحوال ...

فحاول عند ذلك الوصول إلى الحقائق وتفسير الظواهر التي من حوله في الكون بما يملك من قدرات ومؤهلات، فما هي العلة من الوجود وما هي حقيقة الكون وما الحكمة من وجود الإنسان فيه وما سبب ذلك وما هي علاقة المخلوقات فيه وما هو دورها في هذه الحياة !

وكان الواجب على الإنسان عندها أن يعتمد على منهج الدين وما جاء به من مضامين للوصول إلى الحقائق فيكون قد كفي مؤونة البحث، ولكن الذي حصل بالفعل هو أن معظم أولئك الأقوام الأُول ألغو صوت العقل والفطرة والحس واستبدلوا منهج الدين بمناهج مختلفة متغايرة تعتمد على الفكر غير المنطقي وعلى العقل المجرد من ضوابط القيم والأصول العقلية السليمة فاختلفت عند ذلك رؤى الناس في حقيقة الأمر وتباينت طرق تفكيرهم فيه وتبعاً لذلك كانت نتائج تفكيرهم متغايرة ومختلفة ولا شك فنشأت من هذا الباب عدة نظريات ومفاهيم تفسر حقيقة وجود

الكون والسبب من ذلك ودور الإنسان وكل الظواهر التي فيه ، وكـــان من أهم تلك النظريات والمفاهيم ثلاثة :

١- مفهوم الإلحاد، وما نتج عنه من نظريات ومبادئ تصب في نفس المضمون كنظرية الفلاسفة الدهريين "الطبيعييون" الذين قالوا بأزلية الكون وبأن الطبيعة خلقت نفسها، والماديين الذين قالوا بأن المادة هـــي كـــل الوجود وأساسه، والروحانيين الذين قالوا بأن الروح هي أساس الوجود، وكلها نظريات إلحادية تنفي وجود خالق للكون ومدبر وصرف له .

٢- مفهوم الشرك، وما نتج عنه من اتخاذ الآلهة المختلفة كـــل قـــوم ومجتمع حسبما رأى، وكلها تعتقد نفع تلك الآلهة وتأثيرهـــا في الحيـــاة، وكلها تتذرع بأن السبب من الشرك هو جعل تلك الآلهة التي في الأرض تقرب لإله السماء كوسائط وشفعاء عنده .

٣- مفهوم الحلول، وما نتج عنه من فكر حقيقة مضمونه خليط بـــين مفهومي الإلحاد والشرك، كمبدأ الحلول والتناسخ ومبدأ الإتحاد ووحـــدة الوجود، وكلها خلطت بين خصوصيات الخالق والمخلوق .

وكل ذلك ما كان إلا لما أهمل الإنسان جانب الدين والشرع القويم وحاول إيجاد العلل والأسباب والوصول إلى الحقائق بطرق بعيـــدة كـــل البعد عن منهج الدين والشرائع السماوية التي جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله تعالى صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين .

طبقة الفلاسفة

الفلسفة :هي التوضيح المنطقي للأفكـــار، بالأســـاليب الواضـــحة توضيحاً بيناً منطقياً سليماً عاماً لكل الناس . وقيل أيضاً إنها طريقة شرح وتوضيح الحكمة بالشكل المنطقي .

وهي أيضاً التفكير السليم حسب حدود العقلانية الإنسانية وتوضيح ذلك وتبيينه جلياً لطبقة العامة . وليست الفلسفة الكلام الزائد والسفسطة والغوغائية التي ليس من ورائها طائل، كما يعتقد البعض .

وكلمة الفلسفة تعد من أكثر الكلمات شهرةً فهي ذات تاريخ قديم إذ ليس من مجتمع أو قوم أو شعب إلا ولهم فلسفه خاصة بهم يظهر مـــن خلالها أسلوب ونواحي معيشتهم تلك .

ومن الممكن أن يكون أول منشأ لها منذ أولى القرون بعد آدم عليـــه السلام وذلك عندما بدأ الإنسان يفكر فيما حوله من الكـــون ويحـــاول تفسير الظواهر وكل ما فيه .

ولما نشأت هذه الكلمة قديماً كانت في بادئ الأمر معتقداً اجتماعياً وحقيقة في كل إنسان، فمعظم المجتمعات القديمة لم تكن تعرف الفلســـفة كدراسة وعلم فيها، ولكن كانت فلسفتها تمثل شكل وســـلوك ونمـــط حياتها فتحاول تفسير الظواهر بما اكتسبته من محيطها وحسب معتقداتها .

ولكن صارت كلمة الفلسفة بعد ذلك تعني اتجاهات كثـــيرة ممـــا جعلها علماً منهجياً كأي علم آخر، ولها قواعد وأسس ومناهج .

وكانت الفلسفة سابقاً تستمد كل منهجها وآرائها ومبادئها ومنطلقاتها من النظر الفاحص الصافي في كل مجالات الحياة، ولكنها أصبحت اليوم تستمد ذلك من علماء ومفكرين خصصوا أنفسهم لذلك، ولأن كلٌ منهم له بيئةً وظروفاً ومجتمعاً غير الآخر فإن ذلك يعني تغير نظرة كلاً منهم، مما جعل مبادئ الفلسفة ومنطلقاتها متغايرة من مجتمع لآخر .

ولذلك، فقد تغير مجرى الفلسفة الحقيقي وانحرف اتجاهها الصحيح إلى آراء شخصيه ونظرات فردية وأهواء ورغبات أثرت في بعضهم منذ الصغر مما جعل ما يعتقده ويراه هو فلسفته ومنطلقه الصحيح، وبما أن الكثير من هؤلاء الفلاسفة هو من غير المسلمين فكان قائده ومبدأه منحرفاً عن المنهج الرباني القويم بشكل تام أو نسبي .

و**الفلاسفة** : هم طبقة من الناس الذين يفكرون بالشكل السليم ويحاولون توضيح أفكارهم للجميع في إمكانية المنطق الصحيح، ويدرسون الطرق المثلى لكل ما يحيط بهم أو يعرض لهم بالبحث العقلي المنطقي ومعرفة الحقيقة منه .

وهؤلاء الناس حاولوا تجريد أنفسهم وتنقيتها للتوغل والتعمق في مكنون الأشياء لمعرفة الغرض منها، ويحاولون توضيح أفكارهم وما توصلوا إليه بالطرق السليمة حتى يتجلى ذلك للعامة من الناس فتظهر الحقيقة لكل إنسان .

وتقول هذه الطبقة إن الفيلسوف هو القادر على إخـــراج الفكـــرة المنطقية الصحيحة الموجودة في كيان الإنسان الداخلي إلى عـــالم الواقـــع وبيانها بالأساليب السهلة لكل الناس .

وتعتمد هذه الطبقة على العقل البشري اعتماداً كلياً[1]، فهي لا تقـــر في مبادئها الأخذ من دين أو شريعة أو رسالة ربانية بل على اســـتنتاجها العقلي، وتحاول الوصول إلى الحقائق وإيجادها عن طريق التجريد النفسي والتفكير المحض مبتعدةً عن تأثير أي رغبات أو شهوات أو حتى أي ديـــن أو رابط عقائدي .

ومن هنا كان منطق كل فيلسوف ما تأثر به سابقاً وذلك عن طريق اتصاله بالمجتمع، وليس كلهم منطقه الدين الصحيح وما جاء به من أوامر ونواهي والتي يجب الالتزام بها والسير تحت ظلها .

وتدعي هذه الطبقة أن العقل عضو فعال وآلة تفكير سليمة صحيحة كاملة الموارد ويمكنها الوصول إلى أبعد الحدود، وليس للعقل عندهم حد معين يقف عنده، وهم يقولون لسنا بحاجة إلى شريعة إلهية لتكمل ما بدأه العقل المفكر للوصول إلى الحقائق وماهية العالم والإنسان فيـــه ومـــن ثم مصيره بعد ذلك ونهاية العالم و... .

وتعتبر طبقة الفلاسفة من أولى الطبقات تأثيراً علـــى الإنســـانية في المجتمعات، ولا سيما وأن كثيراً من المجتمعات تخط طريقها على فلســـفة مفكر وتعتبر فلسفته منهجاً لا تحيد عنه، ولذا فالخطأ منهم يعتبر خطـــأ

[1] مضمون الكلام هنا يتطرق للجانب العقلي المجرد، وليس الجانب الشرعي الأصولي .

منتشراً رائجاً تحمله معظم عقول ذلك المجتمع وتتأثر به، وكأنها قواعد وأصول لهم يسيرون عليها، ولا يخرجون عنها .

ولكن نحن المجتمع الإسلامي يجب علينا عدم أخذ أي فلسفة أو فكرة أو مبدأ إلا بعد تدقيق مضمونها وتمحيصها وبيان فوائدها ومضارها على الفرد وعلى المجتمع، ولعل من أهم أفكار ومبادئ الفلاسفة الخاطئة :

١- نادى الكثير منهم بالإلحاد فكان منهم (الطبيعييون الدهريون) الذين قالوا إن الكون بما فيه أزلي فلا بداية بدأ منها ولا نهاية ينتهي عندها، وأنكروا بذلك الشرائع والأديان والحدود والأحكام وجحدوا وجود خالق للكون المدبر والمصرّف له .

٢- قول البعض منهم، بأن في الكون قوتين قوة أوجدته وتركته هباءاً وهي قوة الله الخالق العظيم وقوة تحركه وهي قوة أزلية غير قوة الخالق العظيم وعليه فلا سيطرة لله تعالى على الكون، ومن ذلك كان خلط الكثير منهم بين خصوصيات الخالق والمخلوق .

وكل ذلك بغير أدلة منهم غير أدلة الخيال العقلي المشبع بالشهوات والشبهات الشيطانية الخارجة عن حدود العقلانية والمفهومية وعن حدود الواقع .

٣- الغلو والشطح في العقل ومدركاته ونفي كونه مخلوقاً مطبوعاً حسبما أراد خالقه سبحانه وتعالى حتى خرجوا عن حدود العقلانية كلها وحولوه من أداة تفكير إلى كونه إله تدبير، بل قال البعض منهم إن الله تعالى لم يوجده أصلاً وذلك لأن نفس الإنسان أزلية .

٤- إلغاء دلائل (القلب والفطرة والحس) السليمة وتجاهل أصواتها الوجدانية داخل النفس، والاعتماد على العقل المجرد منها، وبالتالي حاولوا إدراك كل أسرار الكون بالعقل فقط فقالوا إن الإنسان لا يحتاج لشرع رباني أو دين سماوي وأنه يستطيع أن يعيش ويحيا في ظل مكنون العقل وحدوده ومدركاته ...

٥- فصل الدين عن كل أمور الحياة الأخرى ولا سيما العلم، والقول إن العلم شيء ليس له علاقة بالدين، وعلى هذا الأساس فالعقل عندهم هو مجال التفكير وهو لا يدعو إلى الدين والدين أيضاً في نفس الوقت لا يدعو إلى العلم . وهذه النظرة مع كونها قديمة جداً إلا إنها موجودة اليوم في واقع مجتمعاتنا الحديثة وهي ذاتها نظرة العَلمانية .

٦- التفكير والقول المجرد من العمل وعدم إثبات ذلك في مجال الواقع بربط الحقائق ببعضها البعض، فكل طائفة منهم لها منهج فكري ولا يجمعهم أي مبدأ أو شرع أو مفهوم، لأنهم حاولوا الوصول إلى الحقائق عن طريق الفكر الحر "الآراء الشخصية" والتي لا تضبطه ضوابط منطقية أصيلة والمفتقر في نفس الوقت للمنظور الشرعي والديني، ومن هذا الباب كان خلافهم حاصلاً لا محالة .

وغير ذلك كثير من المبادئ والأفكار الخاطئة التي وقع فريستها الكثير منهم، دون تدقيق ونظر فاحص بل بإنسياب أعمى نحو شهوات نفسية عمياء أو شبهات عقلية زائفة . وعموماً فالفلاسفة متفاوتون في نسبة الخطأ والصحة والنفع والضرر .

الرد عليهم :

١- الأصل في الفلسفة هو البسط والإيضاح للأمور في الطرح ضمن حدود العقلانية وليس التعقيد والتشبيك بينها .

٢- الغرض الأساس من الفلسفة هو إدراك الحقائق فلماذا دوماً تستبعد المفاهيم الشرعية المنزلة وتعتمد كل الاتجاهات الفلسفية الفكرية الأخرى .

٣- في عالم الفكر والرأي (الأمور العقلية غير الشرعية وغير القطعية) ليس هناك خطأ مطلق أو صواب مطلق، بل هما أمران نسبيان .

٤- البعد عن السفسطة والكلام غير المثمر في أي اتجاه فلسفي كائن، والدقة والموضوعية في التفكير ببسط الموضوع ودراسته حسب مقتضيات العقلانية والمنطقية المعتمدة على منهج الشرع، وتقييم الواقع بنظرة شمولية واعية فاحصة دقيقة بطرق كثيرة متعاضدة فكرية وعقلية وواقعية ومنهجية توصل إلى الحقائق وذلك لا يكون إلا بربط المفاهيم الفكرية والعقلية المنطقية والشرعية الدينية ببعضها، والخطأ كل الخطأ في الفصل بينها .

٥- محاولة التحرر من الشهوات النفسية والشبهات العقلية والنظرات الشخصية القاصرة والبعد عن نسج الخيال العقلي غير المنطقي والذي سببه التفكير المحض والبعيد عن المنظور والمنهج الشرعي .

٦- الإحاطة التامة بأن الإنسان مخلوق من جملة المخلوقات في الكون وللكل خالق جليل، وكل فلسفه تقول بغير ذلك فهي مجردتخبطات شيطانيه غوغائية، أو فلسفة قد تلوثت بأفكار ومبادئ خاطئة غير صافية المنبع . وليس هناك دليل عقلاني أو وجداني يدعم فكرة الإلحاد .

٧- معرفة أن خالق الكون هو المدبر له والمتصرّف فيه والمسيطر عليه وعلى كل الموجودات فيه وهو الله الخالق العظيم، ولا معنى من القول بأزلية الكون إذ لكل فعل فاعل ولكل مخلوق خالق ولكل موجود واجد ودلالة التغيير في الكون والتقلب من حال لآخر هي دليل على وجود المؤثر والمغير فيه والقول بالتسلسل ممتنع[١] عقلاً .

٨- معرفة أن أساس الحياة هو توحيد الخالق والعمل بشرعه القويم وتطبيقه في الأرض، وصوت العقل السليم والتفكير المنضبط بضوابط العقلانية والمنطقية يثبت ذلك من خلال الحقائق الكونية الملاحظة . وذلك لأن حاجة الإنسان للدين ملحة وهذا الأمر معلوم يجده كل إنسان في قرارة نفسه، وبما أن الإنسان مخلوق وهذا أمر معلوم أيضاً فكان ولا بد من وجود واضع للدين وللشرع القويم، فمن هو يا ترى، هل هو مخلوق آخر أم هو خالق قادر ومدبر للكون بما فيه .

٩- من مقتضيات التفكير السليم بالعقل السليم والفطرة السوية والحس الصافي حاجة الإنسان الملحة لدين يستكمل ما خطر في الوجدان من حقائق ولدوره "الدين" الفعّال في حياته .

١٠- معرفة أن تعاليم الشرع القويم أفضل منهج للحياة السعيدة وأقصر الطرق للوصول إلى الحقائق الكونية، لذا فالواجب صوغ الفكر في حدود الشرع ومن خلال منظوره وعدم الخروج عن منهجه بحجة أن فيه نقص لم يستكمل أو لم يرد فيه و لم يتضمنه .

---

[١] القول بالتسلسل هو قول : أن إلهاً خلق إلهاً خلق إلهاً خلق إلهاً ... وهكذا .

الميزان الفلسفي :

معلوم في المجتمعات غير الإسلامية أن لكل منها فلاسفته التي تخط له طرق مسيرته وتوصله إلى أهدافه وإلى السعادة الإنسانية حسب مقاصد رواده ومرادهم ومنظورهم .

وأكثر تلك المجتمعات تقدم الفلسفة على الدين وتعتبرها قائدها إلى السعادة، في حين أن أكثرهم يعتبرون الدين على أنه مجرد طقوس وعبادات في أماكن مخصوصة وليس له أدنى تأثير على أي من مجالات الحياة وجوانبها، وتلك هي العَلمانية البحتة .

ولكن ولأننا مجتمع إسلامي ليس هناك فلسفة تخط لنا طريق السعادة إلا إذا كانت تندرج تحت ظل حدود وأحكام وقيم الإسلام وشريعته السمحة والتي تحفظ للإنسان كل الحقوق التي له والتي عليه، وذلك للوصول إلى السعادة في الدارين والتي بينت الغرض من وجود الإنسان في هذا العالم ودوره في الحياة بأسرها .

وعليه ففلاسفتنا هم علماؤنا الربانيون ومفكرونا والدعاة المخلصون والمربون الواعون والدعاة، الدالين إلى تطبيق القيم الإسلامية .

ولذلك فيجب مراعاة (٤) جوانب ونواحي في الفلسفة الإسلامية ذات "القيم والمعاني النبيلة الرفيعة" وهي نواحي لا تتعارض ولا تتصادم إذا كانت منضبطة بضوابط الشرع وضمن حدوده ومنهجه :

١- الناحية الدينية الشرعية .

٢- الناحية العقلية المنطقية .

٣- الناحية الفكرية الفلسفية "التربوية والاجتماعية" .

٤- ناحية المصالح والمنافع الإنسانية .

فكل فيلسوف مسلم يجب عليه مراعاة هذه النـــواحي الأربـــع في فلسفته الإسلامية كي تكون فلسفةً مثمرة وسليمة للمجتمع المسلم تماشياً مع عجلة التقدم وركب التطور وفي نفس الوقت مع الحفاظ الدقيق على الحدود الشرعية الإسلامية .

خطرهم :

هناك الكثير من الفلاسفة غير المسلمين، إضافة إلى بعـــض فلاســـفة المسلمين ممن تأثر بالفلسفات الخاطئة غير الإسلامية ولا سيما اللا دينيـــة ومن كل ما قالوه، ينبغي الحذر منه .

وخصوصاً وأن هناك كثيراً من الناس من طبقة العامة لا يستطيعوا أن يفرقوا بين ما هو صحيح من مقالاتهم (الفلاسفة) وبين ما هو خطأ وربما كان في ذلك خطراً على دين المسلم وصحة عقيدته، فيجب عليه النظـــر في كل ما قالوه واعتقدوه فإن كان صحيحاً أخذ به .

حتى وإن ثمة خطأ رد، ولذا وجب عليهم هم أن يتبعونا نحو الحـــق، وليس نحن الذين نتبعهم على الباطل، إذ ليس من كلامهم ما هو ملـــزم للتطبيق بأي طريقة كانت، وحسبك ما جاء به الإســـلام مـــن مبـــادئ وفلسفة صافية نقية وجب عليهم الإلتزام بها .

طبقة الملاحدة

الإلحاد : هو نفي وجحود وجود خالق للكون، إذن هو نفي وجود الله تعالى وأنه الخالق المدبر للكون بما فيه وأنه المتصرف القادر عليه .

والقول بأن نظام الكون وجميع المخلوقات من تدبير الطبيعة نفسها فليس للكون خالق منظم ومدبر ومسير له، وعليه فلا نظام معين ولا خالق للمخلوقات، إذن فهو قول يبدأ من اللاّ شئ وينتهي باللاّ شئ .

وكلمة إلحاد تعتبر من أولى الكلمات التي انبثقت عبر التأريخ والتي تصدع بها الكون وخاضها عقل الإنسان مغيراً بذلك القول معالم الربوبية الصحيحة وجاحداً ومنكراً حق الرب سبحانه وتعالى وطامساً كل القيم والمبادئ الإنسانية معه، فعندما بدأ الإنسان يفكر وحاول أن يفسر الكون الفسيح وفكر في كنهه كانت فكرة الإلحاد إحدى الخاطرات في عقول البعض من الناس، على أن هذه الحياة أزلية ولا تنتهي بل هي ممتدة من الأزل ومستمرة إلى الأزل، وكانت هذه الفكرة عند كثير من الشعوب كعقيدة راسخة ومنطلق حياة وفلسفة لا تتزعزع .

وقد نشأت هذه الكلمة في تلك البيئات والمجتمعات التي رأت أن طبيعة وسر الحياة هي نفسها، فالطبيعة وهبت نفسها، ورأت تلك المجتمعات أن الكون بما فيه من كائنات ليس لها خالق مدبر وعليه فلم يقرروا أنهم مخلوقات لله تعالى الخالق العظيم .

وكانت تلك الفكرة في البداية مجرد نهج قومي أو رأي متبع، ولكنه اليوم أصبح منهجاً وفلسفة ومنطلقاً ثابت لدى طبقة الملحدين .

وحاولت تلك الطبقة بأفكارها تلك أن تجعل من الفوضى نظاماً ومن الهراء قواعد وأسس ومن الهمجية قوانين ومن اللا نظام نظاماً محكماً .

وكانت بذلك أكثر الطبقات تناقضاً وفوضوية وتخبطاً وعشـــوائية، فأفكارها أشبه بصبيٍ لم يستطع أن يفرق بين الحق والباطل .

والملاحدة عموماً ــ هم طبقة من الناس ينفون وجود خالق للكون ويجحدون وينكرون وجود أي نظام يدبر الكون ويسيره ويقولـــون "إن الطبيعة وهبت نفسها" وهي تسير إلى اللانهاية .

وهم يقولون إن المادة هي الحياة وإن الطبيعة هي الخالق الأزلي التي لا تبيد ولا تفنى، وليس هناك نقطة بدأ للكون، وقالوا بنفي كـــل الشـــرائع والأديان والحدود والأحكام، فلا معنى للحياة عندهم ولا مقصد معروف ومعين لوجود الإنسان فيها .

وهذه الطبقة ترى أن الكون جاء من الفوضى وهو يتجه ويسير إلى الفوضى، دون بداية بدأ منها أو نهاية ينتهي عندها . ومن ذلك كان كل تفسير لهم في الكون والحياة خاطئاً وعشـــوائياً ولا عقلانيـــة فيـــه، ولم تستخدم هذه الطبقة عقلها كأداة تفكير نزيهه ومنطقية فنفـــت وألغـــت معاني الألوهية والربوبية الحقة ولم ترَ أن في الكون خالقاً مدبراً ومخلوقـــاً مفتقراً، فقالوا بأزلية الكون وأنه مستمر إلى اللانهاية .

وبناءً على ذلك فقد فقدت هذه الطبقة كل القيم والمبادئ والمفاهيم الصحيحة السليمة وابتعدت عن الحق والصواب متجهة إلى الضياع والفوضى اللا متناهية والعشوائية العمياء .

والربوبية والألوهية معنيان موجودان ضمن القيم الإنسانية والمبادئ والمفاهيم العقلية النفسية للإنسان ومتى تفكر بجدية تامة وإنصاف ونزاهة وجد تلك القيم تنبع من داخله وتختلج بنفسه وبفكر عقله .

وإذا ألغى الإنسان عقله وفطرته وحسه ونظرته الصحيحة فإنه بذلك يكون قد فَقَد معاني ومضامين القيم والمبادئ والمفاهيم وعندها فهو لا يرى إلا الخطأ صواباً ومنطقاً له فيدافع عنه على أنه هو الصواب وهو الحق، وبذلك يصبح إنساناً مجرد من العقل والقلب والحس .

وكل التفسيرات والظواهر والأفكار والمبادئ الإلحادية لا تعتمد في حقيقة صوغها على العقل والفطرة والحس ولا على الشرائع الإلهية ولذلك كانت كل مبادئ وأفكار الملاحدة خاطئة وضالة، ومنها :

١- نفت هذه الطبقة معني العبودية بنفيها لقيم "الربوبية والألوهية" وبالتالي نتج عن ذلك نفي صوت العقل والفطرة والحس والمفهوم العام لكل عاقل وعليه فليس للحياة مغزى ولا معنى . وهذا أفدح أخطائهم .

٢- لا يستمعون لصوت العقل ولا يمعنون فيه، بل ويدحضون بعنادهم كل دواعي الحق وأساليب العقل والوجدان والفطرة والحس، ويفسرون الأمور كما يريدون وكيفما شاءوا، فكل مبادئهم وأقوالهم هراء وخيال وأوهام لا يؤيدها دليل نقلي أو عقلي منطقي .

٣- عدم ملاحظة النظم والقوانين الكونية بمحاولة التفكير السليم لتفسير وجود الإنسان وكل المخلوقات في هذه الحياة ودور كلٌ منها ومن ثم مصيره ونهايته فيها .

٤- القول بلا معنى ودون تفكير عميق بل ودون مراعاة لصحة أقوالهم ومبادئهم وتفسيرهم للظواهر ومجريات الأمور في الكون .

٥- كل أفراد مجتمعاهم لا تكاد تخلو من الضياع النفسي والتبلد الحسي والهيام الفكري وعدم الرضي لما يقولونه مفكروهم ولكنهم ينسابون خلفهم وينساقون كالبهائم الضالة التي تسير خلف راعيها كيفما شاء وحيثما أراد .

الرد على الملاحدة :

تعتبر طبقة الملحدين من أكبر وأكثر الطبقات بعداً عن الحق والصواب وأشدها جهلاً وغباءً وذلك لأن كل أخطائهم في البديهيات المسلم بها فهم لا يفكرون بالعقل بل بالهوى المشبع بالشهوات والشبهات فخرجوا بذلك عن نطاق العقل ووقعوا فريسة للكثير من التخبطات، ولذا فإن من أهم ما يرد به عليهم :

١- بطلان مبدأ الأزل في الكون، وذلك لأن الأزلي لا يتأثر بالمؤثرات ولا يخضع للتغيير أبداً وإن تغير فهو ليس بأزلي، وعليه فوجود الكون دليل وجود قوة خارجة أقوى منه أوجدته وقادرة على التصرف والتغيير فيه، وفي ذلك دليل على وجود الخالق العظيم له .

٢- امتناع القول بتسلسل الأحداث، دون بداية ولا نهاية أمر ممتنع[١]، وغير منطقي ولا عقلاني وهو لا يخفى على أحد إذ لكل شيء بداية ونهاية، والمشاهد أكبر دليل، إذن ففي ذلك دليل وجود خالق للكون .

٣- إستحالة تحقق مقولة "صدفة" وأن المصادفة حاصلة في كل ظواهر الكون، لأن ذلك أمر غير منطقي، فالمصادفة قد تكون لمرة أو لمرتين أو ثلاثة أو حتى لعشرة، ولكن يستحيل تحققها في كل شيء في الكون وبهذا النسق والنظام المحكم والدقة المتناهية والدالة في نفس الوقت على وجود المنظم والمدبر والمصرّف لهذا الكون بدقة وتركيب وترتيب عجيب .

٤- تحقق مبدأ السببية في الكون ومجريات الأمور، وهو أن كل شيء يحصل في الكون له سبب ولا شك، واستحالة حدوث أو وقوع أي شيء في عالم التغيرات بلا سبب . إذن فمسبب الكون هو خالقه وموجده من العدم ومصرّفه ومدبّره والقادر على كل المخلوقات، ولا وجود إلا به .

٥- العلم بوجود قوة خارجة عن نطاق الإنسانية، خلقته وصممته وصنعته بكميات وكيفيات وحيثيات معينة متقنة، وجعلت لخلقه غرض ودور لوجوده، وهي قوة خالق عظيم، إذ من المستحيل أن يخلق الإنسان نفسه أو أن يخلقه مخلوق مثله أو أن يُخلق من اللا شيء أو بدون سبب أو حاجة لذلك وبدون بداية بدأ منها ونهاية ينتهي إليها .

٦- منطق العقل يقول إن لكل عمل صاحب ولكل موجود واجد إذن فلكل مخلوق خالق، ومدلول الحس يثبت ذلك فالعبد حال الدعاء يتوجه لإله السماء، وحال الضعف والفقر والخوف والجوع والظلم وفي كل

[١] راجع حاشية ص٣٩ .

الأحوال يتوجه العبد لمن يشعر أنه القادر على كل شـــيء ألا وهـــو إلـــه السماء، ولو سمى ذلك التوجه بغير مسماه الصحيح كصوت العدالة وقدرة الطبيعة وقوة الإرادة وما إلى ذلك من مسميات فارغة ... والتفكير السليم يدل على قيم ومبادئ الحق الموجودة في نفس كل مخلوق بنفس الضوابط .

٧- معرفة أن الجسد والروح مخلوقات، والإنسان مخلوق مركب منهما بالقدر والكيفية المقصودة للقيام بدوره الذي خلق لـــه علـــى أتم وجـــه وأفضله، إذن فلِكُلٍ من المادة والروح دور يخصه ويؤديه .

٨- تناسب وتناسق القوانين الكونية دليل الصنع والإتقان الدالة علـــى وجود إله واحد خالقٍ ومدبر ومسير، ولو وُجد للكون أكثر مـــن إلـــه لتنازع الشركاء في شركهم ولاختلفوا في تصريفه وفي تدبيرهم له .

٩- إن القوانين والأسس الكونية لا تفسر حســـب الـــرأي والهـــوى وحسبما يريد الإنسان، بل بالتفكير وبالعقل السليم الـــذي يوصـــل إلى معرفة تلك الحقائق الموجودة في قرارة كل الإنسان، والذي يكملها منهج الشرع القويم . وقد عجزت هذه الطبقة عن تفسير الظـــواهر الكونيـــة بمبادئها ونظرياتها فكيف دعواها بأنها ستنقذه بتلك المبادئ الركيكة .

وقد نشأ عن مفهوم الإلحاد عموماً عدة نظريات إلحادية كان مـــن أشهرها وأكثرها رواجاً النظرية المادية ونظرية الروحانية .

١- النظرية المادية :

المادة : هي كل شيء في الكون له حجم وشغل حيـــز ومكانـــاً في الفراغ المحيط به، وهي أيضاً كل شيء ملموس أو محسوس، وهذه المـــادة

هي ذات أجسام صغيرة مؤلفة منها وتسمى (الذرة) واختلاف المادة يكون نتيجة التراكيب المختلفة من هذه الذرات والبنية الأولية لتكوين الجسم، وهذه الذرات تؤلف العناصر التي تتكون منها الأشياء في الكون بتراكيب واتحادات مختلفة الشكل والحالة .

وكل مخلوقات الكون وإن تعددت أشكالها ومظاهرها إلا إنها تتألف من هذه العناصر فقط بنسب وطرق وحالات وتراكيب معينة مختلفة .

وقد بدأت هذه المقولة في العصور القديمة كمنطق ومقولة اجتماعية دارجة وليس كعلم مقنن، وذلك عندما بدأ الإنسان يفكر في ماهيته فكان يقر كل ما يراه بعينه فقط دون أن يلتفت أو يتنبه لعالم الأرواح الموجود والمحسوس من حوله، ثم أصبحت معظم تلك الأقوام المادية بعد ذلك تقول بقدم المادة وأزليتها في الكون، وأنها أساس الحياة ولها وجود مطلق مستقلة عن حاجتها لخالق لها، فأنكرت كل تلك الأقوام الأديان والشرائع، وقالت أن الحضارة إنما هي ترقي لتلك المادة، وقد سيطرت المادة فكرياً على عقول الكثير من الدهريين حتى أصبحت عندهم منهجاً متبعاً مسلّماً به وصار لها مبادئ يرتكز عليها .

وكانت تلك الأقوام تقول إنه من المحال أن يكون شيء له وجود سوى ما نرى بأعيننا وكل ما عدا ذلك فهو خيال وشعوذة وهراء لا وجود له، لدرجة أنهم نفوا كل عالم الأرواح والمخلوقات الدقيقة .

وقالوا إن الأرواح التي في الأبدان هي في حقيقتها شكل من أشكال المادة المتحورة المتغيرة ولا وجود للروح الحقيقية (المنفصلة) وإنما هي مادة

على شكل معين وحالة معينة خاصة بها . والماديون منذ القـــرون الأولى وحتى الآن يستمدون كل مبادئهم من المادة والتخوض فيها بأقاويل مـــا أنزل الله بها من سلطان، فهم يبحثون في جوانبها وكيفياتها وحالاتها وما إلى ذلك، ويفسرون كل ما يرونه على أساس مادي بحت ...

والماديون : هم القائلون بأن المادة هي أساس الوجود في الكـــون، وكل ما يراه الإنسان أو يشعر به هو في الحقيقة من أشـــكالها المتعـــددة المختلفة، وشعارهم العام هو (لا إله والحياة مادة) .

وقالوا إن المادة مستقلة بنفسها وليس لها خالق ابتدعها وكل وظائف النفس في الأصل من أشكال المادة المتعددة والتي لها القدرة والقوة علـــى الفعل والحركة، والحياة نفسها تعد من مظاهر وصفات هذه المادة القوية الفعالة المعقدة التركيب . وقالوا إن كل ظواهر الوظائف في الحقيقة هـــي ظواهر للمخ المادي الفعّال وأن الفكر بذاته هو عبارة عن حركـــة هـــذه المادة داخل العقل في الجسم . ومن المعلوم عقلاً، أن المادة مخلوقـــةً مـــن خالق مدبر لها، وأن لها دوراً تؤديه، وأن لكل إنسان "روحاً وجسماً" .

وهذه الطبقة من الطبقات الفكرية المصنفة ضمن الطبقات الغوغائية، والتي لا تعتبر أن هناك مبدأ وأصل يرتكز عليه في هذا الكون، فلا خـــالق ولا مخلوق ولا دين ولا شريعة، وتحاول دراسة جميع الظواهر الكونية من الناحية المادية المشاهدة، أما عالم الغيب والمحسوس والمعقول فليس له أي دور أبداً بل وتحاول أن تلغيه بتخبطاتها العشوائية، فقد صـــاغ المـــاديون مبادئهم وهي في حقيقتها تعد من أخطاءهم :

١- القول بأن المادة هي سر الحياة وهي كل شيء موجود وشعارهم هو "لا إله والحياة مادة" حتى الفكر هو في حقيقته من تحركات المـــادة، وهذا يعارض الكثير من الظواهر المحسوسة .

٢- قولهم بأن (المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم) بل تتشـــكل وتتغير من شكل لآخر .

٣- القول بأن المادة خلقت نفسها وليس لها إله مدبر خالق فنفـــوا بذلك عالم الروح وأنكروه تماماً .

٤- تفسير كل ظواهر الكون وبما في ذلك الإنسان على أنهـــا مـــن أشكال المادة المهيمنة والموجودة فيه .

٥- القول بأزلية المادة "فلا بداية لها ولا نهاية" وعليه فالكون بما فيه أزلي وليس له موجد ولا محرك ولا مصرف .

٦- قولهم إن الروح "جسم مادي كثيف" ولكنه ترقى إلى جســـم لطيف لا يدرك بالحواس وحتى تطور إلى عدم الإحساس به .

بطلان النظرية المادية :

١- قولهم (لا إله والحياة مادة) قول باطل لأن لكل مخلوق خالقـــاً ولكل مادة روحاً، والماديات ليست وحدها في الكون المليئ بالروحانيات والأسرار غير المرئية من الأمور الحسية والمعنوية المعلومة لدى الجميع .

٢- القول بأن (المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم) قول باطـــل فهي مخلوقة ومستحدثة، ومصرفها هو الله سبحانه، والقـــول بأزليتهـــا

يقتضي عدم تغيرها وبقائها جامدة كما هي، وكونها متغيرة يقتضي وجود المؤثر والمُغير والمصرِف لها أوجدها ومن ثم تصرف فيها كما شاء وقدرته عليها كاملة التصرف كيفما شاء فعل .

٣- قصور المادة وعجزها عن التعدي بنفسها إلى التشكل أو عن تأدية الوظائف، أو كونها هي كل الكون بما فيه من ظواهر لوجوب وجود الفاعل القادر والمؤثر على إيجاد التغيير وتحويل المادة من شكل لآخر، ولا منطقية من قول إن المادة تتشكل بمفردها وبدون مؤثر وموجد لذلك التغيير، إذ لكل فعل فاعل ولكل عمل صاحب .

٤- العلم بأن كل جسم مكون من مركبتين "مادة وروح" ومعرفة أن للمادة وظيفة معينة خلقت لها ولتأديتها، لذا خلقت وجعلت بقدر معين بإرادة خالقها، ومن ذلك كان تشّكل المخلوقات واختلاف تركيبها كلٌ منها حسب دوره في هذه الحياة .

٥- إن كانت المادة خالقاً فمن المخلوق ! وإن كانت خالقاً فكيف خلقت نفسها ! ومتى بدأت بخلق نفسها ! وكيف نشأت وتطورت ! ولماذا ! وكيف ذلك يكون تلقائياً ولأي حافز صار ممكناً من بعد عدم ! وكيف ترقت ومتى ! ولماذا كان منها مخلوقات رفيعةً وأخرى وضيعةً ! ومن فرّق بين الرفيع والوضيع ولأي سبب ذلك التفريق، تساؤت كثيرة تفوق الحصر ... ؟؟؟

٦- لم تستطع النظرية المادية أن تفسر كل الظواهر الكونية، إذ لا بد من عالم الروح الخفي المحسوس، والمشاهد أكبر برهان .

٧- كل المخلوقات في الكون على اختلاف تراكيبها مرجعها وأصل تكوينها من المادة والروح، وفي ذلك دليل وحدة الصانع وهو الله سبحانه وتعالى، وكون المادة مختلفة ومتشكلة دليل وجود مؤثر عليها ومتصـــرف فيها، وإلا فكيف تغير بدون مغير وفي ذلك حجة عليهم .

٨- إذا سلبت الروح من الجسم مات الإنسان حتى ولو كان جسده سليماً صحيحاً، وفي ذلك دليل على أن لكل جسم روحاً .

٢- نظرية الروحانية :

الروح : هي جسم لطيف شفاف محسوس غير مرئي موجود في كل مخلوق يدب على وجه الأرض وله حركة . وللروح الأثر في حياة كـــل كائن، وإذا سلبت الروح من الجسد مات وتوقفت حياته .

وهي ممتزجة مع الجسد مختلطة ومتعلقة به فإذا تأثر الجسد تأثرت وإذا سلم الجسد سلمت، وماهيتها وتركيبها غير معروف بل هي ســـر مـــن أسرار الحياة وإعجاز من الله تعالى للبشر .

وهذه الروح تتأثر بالنعيم وبالعذاب، وهي تفارق الإنسان إذا مـــات ثم تعود له في قبره في عالم البرزخ كما أخبر بذلك ﷺ .

وتعد هذه الكلمة من أكثر الكلمات تعقيداً وإعجازاً للبشر فهي سر من أسرار الحياة والكون الفسيح، وهي قديمة منذ العصور الضالة الـــتي لم تقر الأديان، وقد اعتقد أولئك الأقوام أن الروح شيء غير مخلوق فأطلقوا معنى الروح دلالة على الحياة وعلى الوجود المطلق بقولهم إنها أزلية لا تفنى

ولا تبيد . ولذلك تحوّر معنى هذه الكلمة وتحول إلى معنى أكبر قارن في دلالته خصوصيات مقام الألوهية، وصارت الروح عندهم هي المدبرة لنفسها فلا خالق لها ولا مدبر، وبذلك تحولت هذه الفكرة القديمة إلى مبدأ وفلسفة قويمة عند الروحانيين كالمنهج الثابت عندهم .

والروحانيون : هم القائلون بأن الروح والقوة الروحية هي أساس كل الوجود، ولا وجود للمادة في عالم الحياة .

وقالوا إن كل روح تنقسم إلى ذرات روحية صغيرة تكوّن كل الأجسام المنظورة المشاهدة إذا تجمعت، وأن الجسم ليس له وجود حقيقي وليس له أصل، بل هو أشكال وتجمعات القوى والذرات الروحية .

و"نظرية الروحانية" من النظريات الإلحادية حاول الروحانيون من خلالها تفسير كل ظواهر الكون، فقالوا إن هذه الذرات الروحية متفاوتة الأشكال وتحاول التغير والتشكل دائماً من المادة الجامدة الكثيفة اللاشعورية إلى الروح الحية الخفيفة ذات الشعور محاولة الترقي للوصول إلى الكمال .

وقد اعتمدت هذه الطبقة على كل مدركات العقل ومفهومه الذي هم رأوه وجعلوه كما أرادوا وأدرجوا كل شيء تحت ذلك المفهوم .

وهذا المفهوم خاطئ ولا شك إذ كل موجود في الكون يؤول إلى مركبتين هما "الروح والمادة" فالروح هي الجزء المحسوس الذي يسري ويتحرك داخل الجسم والمادة هي الجسم الكثيف المشاهد الملموس .

وقالوا أيضاً إن العقل يدرك الأمور فيجعلها كما يريد بقدرته فالأمور ليس لها كيان حقيقي موجود مستقل بذاته وإنما كيانها ووجودها حسبما أدركها العقل وفسرها فهو الذي يفهم الأمور ويجعلها كما يراها ويفسرها كما يعقلها، فمثلاً لا وجود للقمر بل العقل هو الذي سماه قمراً وجعله قمراً وهكذا ...

ومنطلق الروحانيين هو تفسير كل الأشياء في الوجود من مبدأ واحد ومن نقطة وفكرة واحدة، فخلطوا بين الروح والجسد، وبين الظواهر الخارجية والمكنونات الداخلية في كل مخلوق، وأخطأوا في إيجاد العلاقة بين هذين المخلوقين (الروح والجسد) والرابطة بينهما . ولذلك فمن أفدح أخطائهم والتي تعد من مبادئهم :

١- إلغاء وجود المادة تماماً، وقولهم إن كل المرئيات والمشاهدات هي في حقيقتها من الروح المتجلية في الكون كله والمتشكلة بعدة أشكال .

٢- القول بأن الروح أزلية وهي غير مستحدثة وليست قابلة للفناء .

٣- جعلهم العقل محور فهم الأمور وأساسها، فلا حقيقة للأمور أصلاً، وإنما هو العقل المعيُن لها كما رسمها وفهمها وجعلها في تصوّره .

٤- بعدهم عن المنطق العقلي السليم الموصل إلى الحقائق الموجودة، واعتمادهم على الأقوال السقيمة والشبه والأباطيل المحضة .

٥- قولهم إن الحقائق لا تدرك إلا بالعقل المجرد جملة وتفصيلاً ولا حاجة للدين، فهو عندهم آلة تفكير محضة ليس لها حدود ولا تخضع لإله تدبير يسيرها، وهذه هي حقيقة الشطح العقلي .

٦- نفي كل قدرة خارجة ومؤثرة في الكون وعليه نفو خالق الكون ومحكمه، فهم دعاة إلحاد تام، وهذه أكبر ثغراتهم وعيوب نظريتهم .

بطلان نظرية الروحانية :

١- نفي القول بالذرات الروحية التي تسعى للكمال، إذ لا تفسير منطقي من تلك المقولة، والمشاهد من عالم المادة أكبر دليل .

٢- اليقين التام بأن الروح من الأمور الإعجازية للبشر وهي تعد سر من أسرار الكون الكثيرة التي عجز العقل البشري عن تفسيرها وعن إدراك حقيقتها لأنه قاصرٌ عن إدراكها وتصورها وذلك لأنه خلق وبه قصور كما أراد سبحانه وتعالى، وذلك لمعرفة أنه يوجد قوة خارجه فوق نطاق وقدرة البشر، وهي قوة الخالق الواجد المدبر للكون .

٣- معرفة أن الإنسان مخلوق وله بداية وله نهاية وله جسم ملموس مشاهد وله روح محسوسة، وحياته متعلقة بهما معاً، وله عمل معين وله أجلٌ معلوم، ومتى سُلبت الروح مات الجسم لتعلقهما ببعض .

٤- القول بأن "الروح لها كل الأثر في الحياة وأنها سر من أسرارها" وفي ذلك حجة عليهم وهو أنه إذا كانت الروح سر الحياة ويستحيل كونها خلقت نفسها فالمفروض أن يكون لها خالق أعظم منها وأنه سبحانه خلقها لعمل معين تؤديه كما أراد .

٥- قولهم "إن الروح إذا تجلت فهي المادة، وعندها يصبح الإنسان روحاً حقيقيةً" وهذا اعتراف منهم بعالم الماديات .

٦- القول "بأن الله تعالى خلق الذرات الروحية ثم تركها هباءً دون حكمة من خلقها ووجودها" وإذا كانوا قد اعترفوا وأقروا بأن للـــروح خالقاً قادراً عليها فلماذا ينفون الحكمة من خلقها ودورها المطلـــوب في الحياة .

٧- القول "بأن المادة هي خيال ظاهري لا حقيقة ثابتة لها في الكون" وذلك صحيح من حيث التركيب وليس من حيث حقيقـــة وجودهـــا، والمشاهد من عالم المادة أكبر دليل على وجودها في الكون .

٨- ليس هناك أحد يستطيع معرفة حقيقة الروح وماهيتها وكنههـــا وهذه أكبر دليل على وجود خالق لها ودليل وحدانيته وإعجازه في خلقه والكون الفسيح، فهو الله الخالق العظيم سبحانه وتعالى عما يصـــفون . وطبقة الروحانيين راحوا يبحثون عن تفسير للكون في سره الأكبر وهـــو الروح فخرجوا بذلك من طريق الحقيقة والصواب مبتعدين به إلى طريـــق الوهم والضلال .

٩- قولهم بأن "الخيال والفكر غير المنطقي" ليس باطلاً لوجـــوده في العقل وطروءه عليه فهو تحت إمكانياته، ولأنه موجود في العقل فكل مـــا فيه وما وقع في مدى تفكيره موجود، وكل مالم يشعر به العقل ولم يخطر له فهو العدم غير الموجود في العقل، وهذا كلام مردود عليهم لأن هنـــاك أموراً ترد على العقل وهي معلومة الضرر والبطلان والفســـاد ولا أحـــد يستطيع أن يثبتها لكونها طرأت على العقل وتواجدت في مخيلته .

حجج ملزمة للملاحدة :

طمست هذه الطبقة كل المعاني والقيم التي تثبت وجود خالق للكون ألا وهو العلي القدير، فكيف وهو واجد الوجود الذي أوجد من العـــدم وجعل العقل البشري أكبر دليل على وجوده سبحانه .

وإذا كان لا وجود للعقل ولا لدوره الفعّال في التفكير والتفريق بين الحق والباطل والخير والشر والضار والنافع عندهم فكيف بمحاولة تفسير ظواهر الكون والحياة من جميع جوانبها ونواحيها إذا كان لا وجود لنظام يسير عليه العقل ويهتدي ويقتدي به، وبالتالي فلا أسلوب صـــحيح ولا نظام ولا ركائز للمسير وإنما تخبط وفوضى في غيابت الضلال والهـــوى وأفكار ومبادئ لا عقلانية .

قوم جميع تفسيراتهم هزلية مفككة ولجاج في الباطل حاولوا صوغها بطرق متينة قوية فكيف يوجد مخلوق بدون خالق وكيف جسم بـــدون روح وكيف متأثر بدون مؤثر وكيف متغير بدون مغير وكيف أزلي يطرأ عليه التغير . ولذلك فهناك فائدة واحدة جوهرية جداً ألا وهـــي معـــنى الفوضى بذاتها الصحيح لمجتمع ليس له نظام أو قوانين أو مبادئ أو شرائع تقننه وتسيره إلى النهاية والمصيرية السعيدة .

وهذا في حد ذاته نفي لنظام الكون ولشرائعه، وهو دليل كبير علـــى وجودها في الكون وتحقق عملها فيه، ونفي الشيء البديهي أو من فاقده دليل على وجوده، فنفي النظام من المجنون أو غير العاقل دليل وجوده في الكون والحياة وأنه محروم منه وغير مستوعب له .

وكذلك معرفة أن في الكون مبادئ خاطئة ومبادئ صحيحه فـــإن كان مبدئهم هو الخطأ فلا شك أن الصحيح هو ما ابتعدوا عنه وأقصـــوه عن تفكيرهم وعن واقعهم الذي يهربون منه وينئون عنه .

وليس هناك سوى شرائع وقوانين ونظم الإسلام الحقيقة الصـــحيحة القويمة والتي لم تفرط في أدنى قيمة في المجتمع بل وبلورت كل مبادئه إلى الوصول إلى النهاية السعيدة في الدنيا والآخرة، إن فعلاً طبقـــت كمـــا جاءت غضةً طرية سمحةً نديه .

طبقة المشركين

الشرك : هو اتخاذ الأنداد والشركاء لله تعالى في عبادته وتوحيـــده، وجعل له شبيهاً وشريكاً ومثيلاً تصرف له العبادة أو جزء منها .

والشرك هو أقبح ما اقترف الإنسان على وجه الأرض وهو أكبر ظلم ظَلَم به نفسه ألا وهو أن جعل مع الله تعالى إله آخر لا يستحق من الحمد والشكر والعبادة شيء فيعبد ويُدعى من دون الله تعالى .

وكلمة الشرك موغلة في القدم، فهي معروفة منذ أن بـــدأ الإنســـان يفكر في ما وراء الكون وفيمن أوجده بهذا النسق وبهذه الكيفية العجيبـــة المتقنة، ولما بدأ الإنسان يتلفت حوله ليوجد مسبب الكون أشرك (البعض منهم) بكل ما رآه من حوله وبكل ما اعتقد نفعه أو قوته أو تأثيره البالغ أو النسبي في الكون وفي حياة الإنسان، ومن ذلك صار لكل قـــوم إلـــه يعتقدون نفعه وضرره وقوته وتأثيره .

ومن المعلوم في ديننا أن أول من أشرك على وجه الأرض هم قـــوم نوح عليه السلام بنو راسب، وهم الذين قاموا بعبادة الرجـــال الخمســـة الصالحين فأرسل الله تعالى إليهم نبياً منهم ليوحدوه سبحانه وتعـــالى في الأرض .

وقد بدأ الشرك قديماً، عندما اعتقد الإنسان أنه لا بد من وجود إلـــه في الأرض قريب منه ليقربه إلى إله السماء، وكلاً منهما يـــرى الآخـــر، فجعل بنفسه أو بيديه إلهاً عبده في الأرض ليقربه إلى إله السماء .

أما حديثاً فلربما اعتقد الإنسان المشرك أنه لا إله إلا إله واحد وهو معبوده المستحق للتعظيم والتقديس، فيكون بذلك قد نفى إله السماء كلياً، وهذه هي أهم علامة فارقة بين قديم الشرك وحديثه .

والمشركون ــ هم طبقة من الناس عبدوا مع الله تعالى آلهة أخرى وعلى اختلاف مقاصدهم، فالبعض كان هدفه التقرب إلى الله تعالى بذلك الشرك كالواسطة بين الله تعالى وبين المخلوق المشرك له .

وهم بهذا الفعل أقروا بتوحيد الربوبية وأنه لله تعالى وليس لغيره ولكنهم أنكروا توحيد الألوهية والذي هو أيضاً من خصائص الله تعالى والذي وجب صرفه له سبحانه دون سواه .

والمشرك في حقيقة أمره يكون قد حرم نفسه من التلذذ والتضرع بين يدي خالقه ومولاه لعبادته، إلا عن طريق تلك الوسائط، وهو بذلك يكون قد وقع في أكبر إثم وجرم لأن الله تعالى هو المنان على خلقه المتفضل عليهم و لم يحجب عنه أحد من خلقه حتى العصاة والمفسدين فكيف بهذا الضال والذي حرم نفسه بنفسه بجعله تلك الوسائط التي لا تنفعه بل تضره وترديه، وكل ذلك لأن مبدأهم هو التقرب إلى الله تعالى بما يعبد معه من دونه سبحانه كواسطة وشفعاء عنده سبحانه .

وقد أثبت المشرك قديماً إله السماء وأنه هو الفاعل في الكون كله والمقدر والمقتدر والقادر على كل شيء فيه واعترف بتوحيد الله تعالى بأفعاله في الكون وهو الذي نسميه (توحيد الربوبية) ولكنه أشرك مع الله غيره بأفعال العباد كالعبادات والتقرب إليه تعالى وهو الذي نسميه

(توحيد الألوهية) لذا فقد كانوا يوحدونه سبحانه في الشدة ويشـــركون معه في الرخاء . ولذلك فيعتبر المشرك مقراً بقدرة الله تعالى بقناعة تامة، ومع ذلك فهو منكر لوحدانيته سبحانه ويشرك معه غيره .

أما حديثاً فقد نفى معظم مشركي اليوم أنه يوجد إله يدبر الكـــون ويسيره وأنه المتصرف الوحيد فيه، لذا فهو مشرك بعيد عن الله تعـــالى في كلتا حالتي الشدة والرخاء، وبذلك يكون مبدؤه نفي أي قدرة تســـيطر على الكون غير إلهه الذي يدعوه ويمجده، ويرى فيه القـــدرة والتـــأثير الكامل في الكون ويعتقد نفعه وضرره وخيره وشره .

ومن هنا كان مشرك الأمس والذي يعرف الله تعالى في بعض أموره ومعتقداته وأحواله "الرخاء" خير من مشرك اليوم والذي لا يعـــرف الله تعالى في جميع أموره ومعتقداته وأحواله "الشدة والرخاء" .

وقد خرجت هذه الطبقة عن الحق خروجاً بيناً وحادت عنه كثـــيراً ولها الكثير من الأخطاء والتي تعتبر من جملة مبادئها :

١- اتخاذ المشركين آلهة على اختلافها وبشكل عشوائي لا تضر ولا تنفع نفسها فضلاً عن نفع غيرها أو ضره، فمنها ما هو مخلوق ومنها ما هـــو مصنوع بيد الإنسان ومنها جمادات، فكيف يُعبد من لا يفهم أو يعقـــل فضلاً عن أن يصرّف ويدبّر وهل الإله يَخلُق أم يُخلَق . وبالجملة فكلهـــا لا تمتّ لمعنى العبودية بشيء، وإنما جهل ضليع متأصل في نفوسهم .

٢- ضعف كل تلك المعبودات من دون الله تعالى والتي لا تملك من أمرها شيئاً وحاجتها وفقرها لله تعالى الغني القوي والعزيز الخالق الرازق .

٣- معرفة الله تعالى وقدرته في الكون وتصريفه له وأنه سبحانه وتعالى هو صاحب الكمال والغنى والعزة والقوة الخالق القادر والمتصرف المدبر للكون بما فيه، ثم العدول عن ذلك إلى قصور في العقل والفهم والفكر بحجج واهية منها التقرب إليه بوسائط وشفعاء لم يشرعها الله سبحانه وتعالى .

٤- تركهم عبادة الذي يدعوهم لعبادته وتوحيده سبحانه، وعبادتهم لمن لم يدعهم لعبادته، مع العلم أن كل ما عُبِد من دون الله تعالى لا يعلم ما العبودية وما معناها فضلاً عن أن يدعهم لعبادته .

٥- ابتداعهم الطرق والطقوس الدينية لألهتهم المزعومة كيفما يريدون، فلا شريعة ولا أديان ولا حدود ولا أحكام وإنما تخبطات عشوائية .

٦- عدم إنصاتهم وسماعهم لمنطق العقل وصوته الداعي إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وإلى الحق والصواب، والذي يتغافلون عنه بشهواتهم وشبهاتهم، فأيهم أحق أن يُعبد القادر المصرّف أم العاجز الفقير الضعيف .

الرد عليهم :

اعتبرت هذه الطبقة من الطبقات التي خرجت من الهدى إلى الضلال بكلتا يديها لأن أهلها يعتبرون من أشد الناس ظلماً لأنفسهم، وذلك لفساد مبدأهم والذي ترتب عليه كل اعتقاد فاسد وفكر خاطئ وفلسفة منحرفة متخبطة، ولذا فمن أهم ما يرد به عليهم :

١- مبدأ الشرك قائم على الاعتراف بوجود الله تعالى ومعرفة آثاره الواضحات في الكون وأن الخلق والأمر والقدرة والتصريف والتدبير هي

له سبحانه وتعالى دون سواه ثم الإشراك معه، فأيهم أحق بالعبادة الخالق الرازق القادر المصرف المتصرف أم الضعيف العاجز الفقير الغافل .

٢- كل المعبودات من دون الله تعالى عاجزةٌ عن نفع نفسها أو دفع الضر، فضلاً عن نفع غيرها أو دفع الضر عنه .

٣- أن الإله المعبود يخلق ولا يُخلَق، وكل المعبودات من دون الله سبحانه وتعالى هي مخلوقة أو مصنوعة بيد المشركين، فكيف يُعبَد مخلوق على أنه خالق لغيره، أو كيف يعبد المصنوع ويجعل إله .

٤- الخطأ الفادح وقصور العقول التي جعلت الشرك في جانب الألوهية فقط دون جانب الربوبية، لعلمهم اليقيني والقاطع عن عجز جميع ما عُبد من دون الله جلت قدرته عن النفع أو الضر لنفسه أو لغيره أو التأثير في الكون .

٥- إصرارهم على عبادة آلهة غير الله تعالى وبدون سبب حقيق لذلك وجعلهم من المخلوقات والمصنوعات آلهة، فكيف يعبد مخلوق مخلوق مثله ويعظمه ويمجده على أنه خالق يختلف عنه وهو مثله في كل شيء، أو هو دونه في القدر والفهم أو هو عديم الحس مصنوع من الجمادات .

٦- إذا كان الإنسان يعتبر أقدر المخلوقات التي خلقها الله تعالى وأعلاها رتبةً وأكثرها فهماً وعقلاً، فكيف يعبد من هو دونه رتبةً وفكراً وعقلاً وعجزاً، وهو يعلم أن المخلوقات غيره هي دونه في كل قدر، ولما هو مفروض أن الإنسان يَعبد من هو فوقه قدرةً وقوةً وتدبيراً، وليس لما هو دونه وأقل شأناً منه .

٧- لا معنى للشرك حقيقة بدليل أن المشرك يعبد إلهه ليقربه إلى الله تعالى، فهو يتقرب إلى الله تعالى بما لم يشرعه وكان الأولى أن يتقرب إلى الله تعالى بما شرعه وبينه سبحانه لا بما نهى عنه وحذر منه .

٨- وقوع الآلة في عالم الشرك بشكل عشوائي، وبذلك فقد خرجوا من معنى الربوبية والألوهية إلى معنى الفوضوية، فكل قوم يتخذون لهم إلهاً حسبما يوافق أهوائهم ورغباتهم ونظراتهم ومن ثم تقديسهم لما يعبدون وتعظيمهم له بلا وعي ولا فهم ولا إدراك .

حجج ملزمة :

هذه الطبقة تعتبر كمعظم الطبقات لها جوانب صحيحة وأخرى خاطئة ومن تلك الجوانب الصحيحة التالي :

١- إفرادهم الله تعالى قديمًا بالربوبية وإثباتهم لذلك دون جدال منهم أو شك في ذلك، لأنهم يعلمون أنه لا قادر ولا مصرّف في الكون إلا الله .

٢- قولهم قديماً بقدرة الله تعالى الشاملة في الكون وتصريف أموره، وهذا يستلزم أحقيته بالتوحيد والعبادة والطاعة والشكر والتقديس .

٣- اعترافهم بالألوهية وقت الشدة دون الرخاء، دليل على الحق الغائر الموجود في نفوسهم وأن إنكارهم لألوهية الله تعالى حال الرخاء ظاهراً هو في حقيقته جحوداً منهم واستنكافاً عن الحق .

٤- قولهم بأن في الكون قدرة عظيمة الشأن تحركه غير قوة آلهتهم، وهي قوة الخالق العظيم، إذن فهو المستحق للعبادة والحمد دون سواه .

٥- تعظيم الشعائر الدينية دليل غلبة الدين على غيره من أمور الحياة وأن الإنسان يلزمه دين يتعبد به، والدين عادة يوضع من الخالق وذي القـــدرة والتدبير والمتصرّف في الكون، إذن يجب عبادته سبحانه وتعالى لأنه هـــو الأحق بالتوحيد والطاعة والعبادة حسبما شرع وكيفما أراد .

ومع أن المشركين قد اعترفوا وأقروا بوحدانية الله جلـــت عظمتـــه وربوبيته في الكون وفي ذلك دليل على أصوات عقولهم القائلـــة إن وراء الكون مدبر وخالق لما فيه فاعترافوا وأقروا بوجود خالق للكون مدبر له ومتصرف فيه وقادر عليه متفرد التصرف فيه، إلا أن ذلـــك لا يـــنفعهم بشيء لأنهم رأو الحق وتغافلوا عنه وهجروه إلى أهوائهم وما سنح لهم من فكر ضليل، فخلقوا آلهتهم بدلاً من أن تخلقهم، ووضعوا الأديان بدلاً من أن يأخذوها عن نبي أو رسول وفسروا الكون كما يريـــدون بمقتضـــى نظرهم الخاطئة .

طبقة الحلوليين

الحلول : هو أخذ المكان والنزول فيه، والمقصود به هنا أن الخالق العظيم يحل ويتجسد في جسم المخلوق الضعيف فيتجلى فيه ويتناسخ معه وبه .

والحلول كما يقولون هو التجسد بين الخالق والمخلوق في كل أشكال الحياة، وبهذا الشكل يلغي أحدهما الآخر ويوقف عمله بذلك التجسد والتناسخ، وليس كل جسم يتحمل الحلول، فالأجسام البشرية التي قد وصلت إلى الدرجة العليا والمكانة الرفيعة هي وحدها فقط التي تتحمله وتكون مجالاً للتجسد بين الإنسان الضعيف وخالقه العظيم .

وقالوا إن التناسخ هو تناسخ الأرواح ببعضها ومنه نزول الله تعالى في جسد الإنسان وتلبسه به، وبهذا يصبح هناك كائن واحد، فمن هو الفاعل الحقيقي الخالق المتلبس أم المخلوق التي نسخت وتجلت فيه روح خالقه . وهذا هو مبدأ "الإتحاد ووحدة الوجود" .

وكلمة الحلول قديمة تعود إلى أقوام عبدوا الجن والشياطين واعتقدوا أنها آلهة تتجسد وتحل في الأشخاص الصالحين المصلحين . وقالوا بالتجلي والتناسخ بين الخالق والمخلوق .

وهذه الفكرة العقائدية أثرت كثيراً في الشعوب القديمة وفي نفوسهم فكونت عندهم عقيدة لا تتزعزع، لذا كانت تلك الشعوب تحاول تفسير ظواهر الكون حسب مفاهيمها معتمدة على تلك الفكرة الإلحادية، وكانت نتيجة تلك التخبطات في الفكر والعقيدة الوقوع في الشرك

والإلحاد الوخيمين، فكان من ذلك إنكار الرجعة بعد الموت والقيامة والحشر والنشور ...

و لم يكن لهذه الكلمة في القديم منهج أو فلسفة، ولكنها أصبحت بعد ذلك ذات مضمون وفلسفة ومنهج (عند الحلوليين) فكانت سابقاً تقول بالتناسخ والتجسد بين الخالق والمخلوق، وهي الآن لا زالت تقول بذلك إضافة إلى قولها بالتجلي بين الخالق والمخلوق، فالله تعالى الخالق العظيم يتجلى في الأرواح الطاهرة الصالحة الصادقة رفعة لها ولوصولها إلى أعلى درجات التعبد والطهر . وبقولهم ذلك حكم بخروجهم إلى عشوائية وفوضى عقلية وتخبطات شيطانية .

والحلوليون ــ هم طبقة من الناس ادعت التناسخ بين الأرواح والتجسد بين الخالق والمخلوق وادعت حلول الله تعالى في جسد المخلوقين والتجلى فيه، ولا يستطيع أحد كشف ذلك الحلول إلا بالعبادة والمكاشفة الصادقة الصرفة والتي توصل العبد إلى أعلى درجات الوصول والطهر .

وهنا وقفة إذا كان في حقيقة الأمر خالق غني مقتدر متصرف ومخلوق فقير ضعيف ومفتقر فكيف يتجسد الاثنان ويحل أحدهما بالآخر رغم الفارق الكبير، وعند تلك النقطة فما هو الفرق بينهما وكيف يتم تجاوزه إذن، ثم من هو الفاعل، وبهذا لا شك يظهر لنا عجز وعيب تلك النظرية وقصورها عن كل ما قالته وأن كلامها في حقيقته هو أقوال خيالية وعشوائية متضاربة .

و لم تعرف هذه الطبقة من الناس قدر الله تعالى الخالق المتين ولـــذلك خلطت بينه وبين المخلوقين، و لم تعترف بالفرق بين الخالق والمخلوق بل تخطته إلى القول بالتجسيد والحلول بينهما مع معرفتهم أن الله تعالى هـــو الخالق العظيم القادر الغني الأزلي والمخلوق هو ضعيف فقير محدث واقـــع تحت تصرف وإرادة وتدبير خالقه . ولذلك كان خطؤهم فادحاً .

وتحاول هذه الطبقة إيجاد العلاقة والصلة بين الخالق والمخلوق معتمدة في ذلك على فكرة التناسخ والتجلي، ولكنهم بأقاويلهم تلـــك صـــاروا ملحدين منكرين وجود الله تعالى وقيوميته فلا خالق قـــادر ولا مخلـــوق مفتقر محتاج إليه .

وصوت العقل يقول إن كل مخلوق له خالق وكل موجود له واجـــد ويقول أيضاً إن الخالق له ذاتية خاصة به وتليـــق بكمالـــه وجمالـــه وإن المخلوق له صفات خاصة به تليق بضعفه وفقره وحاجته حسبما خلقـــه ربه سبحانه وتعالى .

وبهذا يكون المخلوق محتاجاً لخالقه وكائناً بخالقه الذي أوجده، وأن الخالق سبحانه غني عن كل خلقه أجمعين كائن بذاته قبل أن يكون أحد من خلقه، وعليه فمن أهم مبادئهم :

١- القول بوحدانية الله تعالى ثم القول بحلوله وتناسخه بالمخلوق .

٢- القول بعجز المخلوق وفقره وحاجته ثم القول باتصاله بخالقه .

٣- إنكار الشرائع الربانية والأنبياء والرسل، أي إنكار منهج الـــدين والاعتماد على العقل المجرد من المنطقية والعقلانية .

٤- القول بالحلول في حقيقته طمس معنى العبودية وذلك بنفي الفرق بين الخالق والمخلوق .

٥- (قال البعض منهم بمبدأ الإتحاد ووحدة والوجود) وهو أنه لا موجود إلا الله تعالى في هذا الكون، وأن المخلوقين إنما هم تجليات لله تعالى في الكون . فكيف يكن خالق ومخلوق ! فيتجلى الخالق في المخلوق ليكونا واحداً فمن هو الموجود إذن ! وهل هو واحد منقسم أم أكثر من واحد !

إضافة إلى اعتقادهم أن الله تعالى خلق الكون ثم تجلى في خلقه، وأن القدرات التي يظهر بها البعض ما هي إلا من قدرات الخالق المتجلي في أحد خلقه فظهر بتلك القدرة . إذن فما هي قدرة الله تعالى وما هو دور ذلك المخلوق الضعيف .

الرد عليهم :

كل من ادَّعى الحلول والتناسخ وقع في أخطاء كثيرة وأقوال متناقضة متضاربة ومن جملة تلك الأخطاء :

١- اعترافهم ابتداءً بأن الكون بما فيه له خالق واحد مقتدر عليه .

٢- عدم اعتمادهم على نقل أو على شرع لإثبات مقولاتهم تلك، وإنما على خيال عقلي وشبه وأباطيل محضة في كل أقاويلهم .

٣- إن الإنسان مخلوق واحد من جملة المخلوقات في هذا الكون وليس هو المخلوق الوحيد فيه، وجميع المخلوقات تلك هي من صنع الله سبحانه وتعالى وتحت تصرّفه وإرادته .

٤- القول بأن في الكون خالقاً ومخلوقاً، ثم القول بالحلول والتناسخ بينهما وإلغاء الفروق وصفات كلٌ منهما "ولكلٍ ما يناسبه ويناسب وضعه" فكيف يتم ذلك ! ولماذا لا يكونا خالِقَين أو مخلوقَين سواء !

٥- بطلان عمل الشريعة وما جاءت به بحلول الخالق في مخلوقاته إذ لا معنى للأحكام والحدود عند حدوث ذلك، إذن فالقول بالتناسخ ألغى معنى العبودية تماماً .

٦- الحلول لا يتم إلا بين شيئين متقاربين متجانسين، ولا مقارنة بين الخالق والمخلوق إذ لكلٍ منهما ما يناسبه .

٧- قولهم إن الله تعالى يتجلى في مخلوقاته فيبطل عملها يعني وجود كائن واحد فقط، وإلا فمن هو المتجلي وفيمن تجلى، وبهذه المقالة كان نفي الفرق بين الخالق والمخلوق .

٨- ما الحكمة من حصول الحلول والتناسخ بين الخالق والمخلوق ! ولا سبب حقيقي يستدعي حصول ذلك الأمر في جميع الأحوال .

حجج ملزمة :

كل من قال بمبدأ الحلول والتناسخ أو الإتحاد ووحدة والوجود ألزم نفسه بنفسه بحجج ملزمة له من خلال أقوالهم تلك :

١- الإقرار بوجود الخالق ووحدانيته منفرداً وقناعتهم بذلك ودون إنكار منهم عليه ابتداءً .

٢- الإعتراف بضعف المخلوقات واحتياجها إلى الله تعالى، دليل الفارق الكبير بين الإثنين أحدهما غني قدير والآخر ضعيف فقير .

٣- قولهم بفناء القدرة من الجميع وإعزاء ذلك إلى الله تعالى، وهـــذا كلام صحيح ولكن لا يلزم من ذلك التناسخ والحلول، فمثلاً المخلوق قد يحتاج لغيره ولا يستلزم ذلك الحلول والتناسخ بينهما .

٤- القول بأن السيطرة التامة هي للخالق العظيم في جميع التصرفات وتقديرها منه سبحانه على جميع المخلوقات، وهو كلام صحيح ويستلزم أن يكون في النفس إرادة غير إرادة الله تعالى وأن إرادة الله سبحانه مطلقة وإرادة المخلوق مقيدة بإرادة خالقه سبحانه .

وعليه فهناك "طرفان" خالق ومخلوق و"إرادتان" إرادة الخالق المطلقة وإرادة المخلوق المقيدة بإرادة خالقه العظيم .

وربما ادعت هذه الطبقة ولجأت في مقالاتها إلى إثبات التوحيد عـــن طريق العقل المحض والفلسفة السفسطائية، مبتعدة عن الـــدين والشـــرائع الربانية، فكيف يا ترى يتم ذلك والبعد عن الدين يلغي صـــوت العقـــل والفطرة السليمة السوية والحس الصافي .

الربوبية والألوهية

أخطأت كل الطبقات التي مرّت معنا في ضبط مدلول هاتين الكلمتين وبذلك وقعوا في تخبط وعشوائية متضاربة، وهذا الخطأ الفادح جرّهم إلى عدم فهم الغرض من الحياة ودور الإنسان فيها، ولذا وجب التوضيح .

فالألوهية :

كلمة تدل على الإله الخالق القادر الذي يَخلُق ولا يُخلَق ويقدر ويصرّف والكل تحت قدرته وحكمه وتصرفه .

وكل البشر جملة من خلقه سبحانه وليس لأحدهم القدرة على إدراك شيء من صفاته أو خصوصياته أو عظمته ولا حتى بمجرد التصور والخيال وذلك لأن تركيبة عقولهم قاصرة عن إدراك تلك الذات الإلهية، والعقل بكل أبعاده ومدركاته لا يستطيع بلوغ شيء أو تحصيله عن تلك الذات الإلهية لأنه سبحانه خلق الإنسان ضمن صنعة أرادها وقدرها له تعالى بكيفيات وحيثيات مقدرة معلومة عنده عز وجل علم كل شيء عن النفس الذي خلقها والخاضعة له ولقدرته، وتلك دلالة تعد من الدلالات الواضحات على وجود الفوارق الواضحة بين الخالق والمخلوق وأن هناك حدوداً بينهما . ومن دلالات هذه الكلمة :

١- الإله دائماً هو المعبود إذن هو صاحب العلو والقهر والفوقية والملك التام سبحانه دون منازع وكل الخلق تحت تصرفه وقهره ولا يستطيع أحد منهم النفاذ من سيطرته وقهره وقوته سبحانه .

٢- الألوهية تعني الوحدانية الفردانية فهو إله واحد أحد فرد صمد ولو تعددت الآلهة لاختل نظام الكون ونسقه وتدبيره، والمخلوق لا بد له من خالق إذ لا مخلوق إلا بخالق، ثم لا مساواة بين الإثنين قطعاً وإلا لكانا خالقين أو مخلوقين سواءً بسواء، وعليه فالعبودية هي توجه المخلوق لخالقه المستحق للعبادة والطاعة والاستسلام والانقياد والحمد والثناء والشكر ...

٣- الألوهية تعني التصرف المطلق كيفما شاء وأراد سبحانه دون حدود لذلك التصرف أو تقييد من سوى أخرى إذ لا وجود لإله سواه ولا أزلية لشيء في الكون بل الكل محدث ومخلوق، والمخلوق لا يملك من أمره شيء وإلا لما احتاج لعطاء وقدرة خالقه، وكل ما يملكه العبد ويظن أنه قادر على التصرف فيه إنما هو من عطاء الله تعالى له ولو شاء لحرمه ومنع عنه ذلك، وبالجملة فكل النعم من باب الاختبار من الخالق للمخلوق حتى يظهر المتبع من المعرض والمعترض من الخلق عن شرعه سبحانه .

٤- الألوهية تعني عجز المخلوق وحاجته الماسة لخالقه العظيم، وذلك لاحتياجه وعجزه عن إدراك شيء أو تحصيله بغير قدرة خالقه العظيم إضافة لتأثره بمتغيرات الزمان والمكان التي خلقها الله تعالى، إذن فهو محتاج للقدرة والحكمة والنظرة الشاملة من خالقه العلي القدير العظيم، وبالتالي فهو محتاج لشرعه القويم .

٥- الألوهية تعني التبعية التامة لصاحب النعم ومولیها لأنه هو المستحق لذلك وأن صرف أياً منها لغيرة تعالى يعد ظلماً ووضع الشيء في غير محله، فالخالق هو من له الأحقية الكاملة للتوجه إليه سبحانه بكل أنواع

العبادة والولاء والانقياد والطاعة والاستسلام . وإذا كان الجميع متفقون على وجوب الشكر لمخلوق بعينه على ما قدم وأسدى، وعلى ما هو عليه من ضعف وعجز وقلة حيلة عن نفع نفسه أو دفع ضرر عنها فما هو الحال والواجب تجاه مولي النعم ومبتدئها وكيف ونعمه لا تعد ولا تحصى فضلاً عن أن يجحد وينكر فضله تعالى .

تصريف الإله :

خلق الله الخلق لعبادته سبحانه، وخلق الكون بكل ما فيه وجعله دال على وحدانيته سبحانه وقدرته وعظمته، وأنه الخالق العظيم على ذلك، كالشاهد الحاضر لكل من تفكر "بعقله" والذي هو أيضاً دليل آخر على صنعه تعالى وإتقانه للكون بما وبمن فيه، وهو سبحانه أتقن الكون وجعل له نظاماً لا يدركه ويحيطه إلا هو سبحانه ولا يسأل عن كيفية ذلك .

وهو الذي خلق وأوجد وذرأ وبرأ وصرف وقسم وشرع، وكل ذلك كأفضل وأحسن نظام للحياة في هذه الدار، وكان شرعه على لسان أنبيائه ورسله أفضل شرع ومنهج للحياة البشرية جمعاء .

وهو في كل ذلك ليس محتاجاً لأحد ولا يعجزه شيء ولا يزيد ذلك في ملكه شيء مهما بلغت طاعة الطائعين، وكما أنه لا ينقص من ملكه شيء مهما كان عصيان العصاة . فهو الخالق المتفضل على خلقه بالنعم مع غناه عنهم أجمعين سبحانه وتعالى، وهم المخلوقون المحتاجون لخالقهم في كل زمان ومكان ووقت وأوان، ومع ذلك فمنهم من ينكر وحدانيته ويقصّر في عبادته .

وصفة الألوهية تدل على أفعال العباد تجاه المستحق لذلك إذ لا ينبغي منهم صرف شيء لغير الله تعالى المعبود المستحق لذلك . فسبحان الله العظيم سبحانه وتعالى عما يصفون، سبحانه وتعالى عما يؤفكون، سبحانه وتعالى عما يشركون ...

الربوبية :

الربوبية مأخوذة من معنى الرب والمربي، إذ لكل مخلوق رب خالق له ومربٍ له يلجأ إليه في الرخاء والشدة، وهي كلمة تعني وجود رب خالق مالك للكون بما وبمن فيه متصّرف فيه ومدبّر له كيفما شاء وأراد تعالى .

وصفة الربوبية تدل على أفعال الرب في الكون وتصريفه له سبحانه دون منازع أو مساعد له في ذلك، وهي صفة أزلية له (القيومية)[1] سبحانه قبل أن يخلق شيء إذ هو رب الكون والعالمين أجمعين . ومن الدلالات الواضحات لهذه الكلمة :

١- إن الرب هو الخالق العظيم والمتصرف الوحيد في الكون وصاحب الفوقية والقهر والخلق والأمر، وكل مخلوق مفتقر إليه ومحتاج له، وذلك لأنه الخالق الرازق المحي المميت منزل المطر وخالق الفِطَر عالم الغيب والشهادة الغني عمن سواه سبحانه واهب النعم ومبدؤها قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولا قدرة لكائن في الكون كله على شيء من تلك الأفعال فتعالى الله عما يقول الظالمون وتقدس وعلى علواً كبيراً .

[1] القيومية صفة من صفات الله تعالى، تعني أنه سبحانه هو القائم بشؤون خلقه أجمعين، الظاهر لنا والخفي عنا .

٢- الرب تعني الوحدانية الأزلية، وذلك لأن دلالة الأزلية تستلزم صفة التفرد بذاته سبحانه القائم بأمره تعالى الغني عن غيره العزيز القدير والذي يرجع إليه أمر كل شيء من الخلق فهو مبدئ الكون ومعيده سبحانه .

٣- الربوبية تعني أن للكون رباً واحداً متصرفاً لا سواه، وإلا لتنازع الشركاء في شركهم، ودلالة ذلك في وحدة الصانع وإتقانه سبحانه والشواهد الحاضرة والغائبة في الكون، ولا وجود لأزلي في الكون غيره سبحانه والقول بأزلية سواه يقتضي القول بالتسلسل وهو ممتنع[١].

٤- الربوبية تعني أن العبادة تكون للرب المستحق لها والمربي على الخير الدال عليه، فهو سبب وجودهم في الحياة من العدم، فوجب بذلك تطبيق شرعه واتباع أوامره كما شرع وأراد لأنه صاحب كل شيء وخالقه .

٥- آلة العقل تقول إن الربوبية لها طرفان (رب، ومربوب) أي خالق ومخلوق، فالخالق هو المعبود والمخلوق هو العابد لخالقه وربه سبحانه كيفما شاء وأراد وشرع وقسم وحدد ...

٦- مضمون هذه الكلمة الحقيقي موجود في كل مخلوق ولا يستطيع أحد أن ينكر مدلولها مهما حاول نفي وجود الله تعالى ومهما عَبَد من

---

[١] لو قلنا بأزلية غير الله تعالى في الكون، لاقتضى ذلك عدم قدرة الله سبحانه عليه لأنه موجود منذ الأزل . ولو كان الأمر كذلك، فهناك حالتين :

الأولى . أن يكون أحدهما موجود قبل الآخر وعندئذ، فالثاني ليس بأزلي لأنه حادث بالأول، إذن فالله عز وجل هو الذي أوجده .

الثانية . أن يكونا أزليين سواء وهذا ممتنع لأحد أمرين، الأول لو كان الأزلي الآخر أزلي لما تأثر بالمتغيرات لأن الأزلي لا يطرأ عليه تغيير . والثاني لو كانا أزليين لتنازع الاثنان في تدبير الكون، وهذا ممتنع وواضح البطلان . إذن فلا أزلي غير الله تعالى جلت عظمته .

دونه، والسبب الرئيس في ذلك هو أن الله تعالى هو واجد الوجود وهو وحده في الكون القادر على الفعل والتصرف وكل ما سواه عاجز عن نفع نفسه أو دفع الضرر عنها من الأساس . وهذه أهم معاني الربوبية الحقة ولا ريب .

صانع الصنعة :

وإذا كان قد اتفقنا على أن الله تعالى هو الذي خلق الكون بما فيه فهو رب الكون ورب العالمين وإذا كنا اتفقنا على أن الله تعالى هو خالق الإنسان فهو ربه وإلهه، إذن هو صانع الكون ومدبره ومصرف أموره، وهو سبحانه موجد الإنسان من عدم والقيوم بشؤونه وبرزقه فمن يا ترى يستحق العبادة الحقة فتُصرف له ويتوجه بها العبد إليه !

إذن لنعلم أن كل صانع صنعة هو أدرى بها وبما صنع وهو وحده الذي يحقق لها الهدف من صناعتها ويعرف كل شيء عنها فكذلك الله تبارك وتعالى خلق الخلق وهو أدرى بهم وأعلم بهم وبما ينفعهم ويصلح شأنهم وهو وحده سبحانه الأحق بالعبادة لأنه صانعنا من لا شيء وخالقنا من لا شيء وموجدنا من العدم سبحانه وتعالى وهو أعلم بنا وبنفوسنا وبما ينفعنا في هذه الحياة .

ولذا فقد شرع لنا عز وجل كل ما من شأنه خير العباد وضمن لنا أفضل حياة سعيدة فما لو أقمنا شرعه سبحانه وتعالى .

الواقع المعاصر :

كل تلك الطبقات التي قد مرت معنا تتشابه في أمـــور وتختلـــف في أخرى، تتشابه في كونها جميعاً ذات منظور ومنطلق ديني (غير سمـــاوي) ولذلك فهم جميعاً لا يعتمدون على الدين والشريعة بـــل علـــى العقـــل البشري القاصر وغير النزيه والذي يعتبر رائدهم في صوغ معظم أفكارهم ومبادئهم وقيمهم إن لم يكن كلها .

ولربما اتفقت طبقة مع أخرى أو عدة طبقات في نظرية أو مفهوم أو جزئية ما أو مبدأ عقلي، وذلك كما قلت لأن رائدهم هو العقل غير النزيه ومدركاته القاصرة، والتفسيرات غـــير المنطقيـــة المتخمـــة بالشـــهوات والشبهات، وكل ذلك لعدم اعتمادهم على دين أو شريعة سماوية .

وفي نفس الوقت ولأن العقل يعتبر هو العنصر الفعّال الأول عنـــدهم يكمن خلافهم أيضاً، إذ لكلٍ منهم نظرة ومفهوم ونظرية ومبدأ وقـــانون من خلالها وبموجب معطياتها يبني منطقه ومنطلقـــه في صـــياغة مبادئـــه وأفكاره ومعتقداته .

ولذلك كله كان المشرك في بعض مبادئه من دعاة الحلول، وكـــذا الملحد تارة تجده من دعاة المادية وتارة من دعاة الروحانية، وتجده أحياناً في بعض مبادئه وأفكاره مشركاً .

أما أماكن تواجد تلك الطبقات اليوم في واقعنا المعاصـــر، فبالنســـبة لطبقة الفلاسفة فهي منتشرة في كل مجتمعات العالم ولا يكاد يخلو مجتمع من فلاسفة ولا سيما المجتمعات الغربية اللادينية أو ذات الدين المحـــرف،

ومن أشهر فلاسفة الغرب عموماً فلاسفة اليونان والرومان والتي كانت ولا زالت المجتمعات الغربية وبشكل عام تدين وتعتقد بمبادئهم ومعتقداتهم منذ قرون طويلة وكأنها شرائع ربانية لا يحيدون عنها .

أما طبقتي المادية والروحانية فهما نتاج الفكر الغربي الممزوج بالفلسفات القديمة والمعتقدات العقلية غير السليمة، وقد انتشر هذان المبدآن في جميع أنحاء العالم كأوروبا وآسيا وأمريكا، ولا سيما روسيا وحلفائها والصين واليابان ذوي المبدأ الإلحادي (المادية) وكذا مناطق من الهند ودول من أمريكا الجنوبية وغيرها، إضافة إلى بعض دول العالم التي نادت بالروحانية الملحدة .

حتى النصرانية الرسالة السماوية والتي تدعى اليوم بالمسيحية (وبينهما فوارق كبيرة)[1]، اعتنق أصحابها الكثير من المبادئ الوثنية كالروحانية والمادية وغيرها فتحولت في الكثير من الأحيان بذلك من دين سماوي إلى طقوس شركية وأفكار ومبادئ ومعتقدات كلها ضروب من الوهم كالقول باللاهوت والناسوت وبروح عيسى عليه السلام والتناسخ وخلافه ...

أما طبقتي الحلول والشرك فهما طبقتان لا ينفك بعضها عن بعض، فالشرك منتشر في كل بلاد العالم ومبدأ الحلول يتبعه في معظم تلك البلاد بطبيعة الحال، إذ الحلول مبناه على الشرك بالله تعالى ...

---

[1] النصرانية هو المسمى الحقيقي للرسالة السماوي كما جاء بنص القرآن الكريم، أما المسيحية فهو لفظ خاطئ استعمله الغرب ووصفوا به الرسالة السماوية، بعدما طرأ عليها التحريف وخالطتها المفاهيم الفكرية والفلسفية .

بلاد العرب :

كانت جزيرة العرب في البداية وبعد البعثة المحمدية الشريفة متمسكة بالدين الإسلامي الصحيح، حتى كان عصر الخلفاء الراشدين والذي اعتبر آخره بداية نشوب الكثير من الأفكار والمعتقدات والمبادئ الفاسدة .

ومع تقادم الزمن كثرت المبادئ والأفكار الخاطئة الفاسدة وخصوصاً لما بدأ عصر الترجمة لكتب غير المسلمين ولا سيما كتب اليونان والفلاسفة القدماء، بدأ عندها التعرف على الكثير من المبادئ والمعتقدات غير الصحيحة والتي اغتر بها بعض المسلمين فانتحلها وصار يحاول شرحها أو طرحها وبسطها على أنها أمر عقلي جدلي لا ديني حتى تغلغلت فيه ومن ثم رويداً رويداً أفسدت على الكثير دينه وعقيدته .

إضافة إلى كثرة الفتوح الإسلامية التي شملت الكثير من البلاد والتي كان نتيجتها دخول الكثير من الناس في الإسلام، فصار معظمهم ينقل بجهله وقلة وعيه وربما دون قصد منه بعض أفكار ومعتقدات ديانته السابقة أو ما كان يعتنقه من عادات وتقاليد، هذا فضلاً عن كون الكثير من تلك البلاد (بلاد العجم) كانت مناطق ضعف ديني وتحوي الكثير من المسلمين وغير المسلمين على اختلاف عاداتهم وتقاليدهم ...

وفي أواخر العهد الأموي بدأت المبادئ والمعتقدات والأفكار تظهر بشكل ملحوظ ولكنها كثرت وتفشت في أوائل الدولة العباسية وأخذت بالظهور حتى كثرت المناظرات بين أهل السنة والجماعة مع غيرهم من ذوي (الفكر والآراء والبدع) وتفشت ظاهرة "الجدل" والتقول والبحث

العقلي أكثر من التمسك بالكتاب والسنة عند الكثير في ذلك الوقت، ومن ذلك اليوم وإلى يومنا هذا أخذت الفرق والمذاهب والمبادئ في ازدياد مستمر وتشعب وتفرق .

ومن أشهر الفرق والمذاهب والمبادئ التي ظهرت على الساحة الإسلامية وأثرت فيها عموماً منذ ذلك اليوم وإلى يومنا فرق (الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والصفاتية والجبرية) بفروعهم وتشعباتهم .

والماتريدية، والصوفية، وحركات الباطنة (الفاطمية) التي فرّخت في العالم الإسلامي عدة حركات وظهرت بأشكال متعددة وبعدة مسميات كـــ (النصيرية، الدروز، العلوية، البهائية أو البابية، القاديانية أو الأحمدية، الإسماعيلية، السبعية) .

وحديثاً حزب البعث الاشتراكي، والقومية العربية، إضافة إلى بعض فرق النصارى التي تنتشر في أراضي العالم العربي كالمارونية والأرمن .

ومعظم هذه الفرق والمذاهب موجود إلى اليوم على أرض المسلمين إن لم يكن كلها وللأسف .

أما المبادئ والأفكار فمنذ أن بدأ الجدل وعلم الكلام أوائل العصر العباسي كثرت المبادئ والأفكار وبدأت بشكل ملحوظ تبعاً للفرق والمذاهب فنشأ مبدأ الجبر ومبدأ الاختيار ومبدأ الاتحاد ووحدة الوجود ومبدأ الحلول والتناسخ والطرق الصوفية كـــ "الملامتية، الجشتية، التيجانية، القادرية الجيلانية، الرفاعية، الدسوقية، الشاذلية، النقشبندية ..." والكثير غيرها من المبادئ الخاطئة الذي انتحلها أولئك المبتدعة .

وكل تلك المبادئ والأفكار وجدت مع مرور الزمن تبعاً لكثرة الجماعات والأحزاب والمذاهب، وكل ذلك كان بدافع أحد أمرين :

١- محاولة إفساد الدين والشريعة الإسلامية وتفرقة الصف المسلم بإدخال الحزبية والعصبية إليه والأفكار غير الشرعية، فيتفرق ويتشتت شمل المسلمين بالأحزاب والفرق والمبادئ والأفكار والبدع والأباطيل والشبه والمعتقدات الباطلة التي تدعو في مجملها إلى الحزبية والفرقة والجدل والتنظير، ومن هذا الباب نشأت عدة حركات كمبدأ وحدة الأمة العربية "القومية العربية" ومبدأ العَلمانية المجرد من القيم ومبدأ الحداثة ...

٢- محاولة الحفاظ على دين الله تعالى بشكل رآه بعض المصلحين أنه لربما كان مناسباً ومجدٍ في مجتمعهم في ذلك الوقت وبتلك الطريقة ...

ومن هذا الباب نشأت حديثاً عدة حركات "جماعات وأحزاب" ظهرت على الساحة الإسلامية من أشهرها انتشاراً في العالم الإسلامي حركة الإخوان المسلمون وجماعة التبليغ[١]، وحزب الإصلاح، وحزب السلامة، وحركة الجهاد، وحركة النهضة والجماعة السلفية، وجماعة التكفير والهجرة، وغيرها كثير من الحركات الإسلامية ...

وقد تباينت طرق تلك الجماعات والأحزاب الإسلامية في الدعوة إلى الله تعالى ووقع بعضهم في خلاف مع غيره جرّهم فيما بعد إلى تخطئة

---

[١] مع العلم أن هذين المبدأين كانا ذات مناهج صحيحة، لكنهما تغيرا عما كانا عليه وتخللتهما كثيراً من الأفكار والمبادئ التي لم تكن من أصولهما، على اختلاف درجة التغيير الحاصل من مجتمع لآخر، ولا سيما حركة الإخوان التي يختلف منهجها العلمي والدعوي المعتدل عن توجهها الفكري والسياسي التنظيمي كثيراً .

بعضهم بسبب اختلاف الرؤى والأساليب، وأقصد بذلك الجماعات التي لم تجنح عن طريق الحق وتحيد عنه كثيراً، وكان لها آثاراً إيجابية مؤثرة .

صراع الأحزاب :

الأصل في الدعوة إلى الله تعالى هو إظهار الحق جلياً وإبطال الباطل وتعريته ودحضه وكشف الشبهات وبيانها، وإجمالاً نصرة دين الله تعالى وإعلاء كلمته الحقة وفي نفس الوقت دحض أهل الكفر والفسق والفساد وإبطال مخططاتهم .

وبما أن حال المجتمعات الإسلامية اليوم تعج بالجماعات والمذاهب والأحزاب الإسلامية والكل يدعو إلى الله تعالى، كان ولابد من اختلاف طرق الدعوة وتباين أساليبهم وطرق تفكيرهم كلٌ بما يراه مناسباً ومؤثراً في مجتمعه ذاك، تبعاً لكثرة الآراء واختلاف الأفكار وحسب فعالية الدعاة ومراعاة حاجة الناس الماسة والشديدة لتنوع طرق الدعوة وأساليبها حسب احتياجات المجتمع، ومراعاة مقتضى الحال ومسايرة للواقع حسب الزمان والمكان والوضع والحال .

وإذا كان كذلك فالحكم العام من هذا المنظور، أن كلهم سعيه مشكور وجهده وحظه موفور وطريقه وسبيله وعمله طيّب مقبول، لكن بشرط أن تتسم دعوته تلك بالوسطية والاعتدال والحماس المتزن ومراعاة أحوال المجتمعات واختلاف أوضاعها، بالإضافة لاستعمال كل أسلوب مؤثر فيه يعكس نتائج إيجابية، وفي نفس الوقت تجنب كل أسلوب ومنهج يدعو إلى الحزبية أو التجمع أو التمذهب أو يحث عليها .

وإذا تحقق ذلك فعلاً لدى كل جماعة وحزب يكون قد عُلم أن مفهوم "صراع الأحزاب" مبدأ خاطئ، يجب أن يحل محله مفهوم "التعددية في الدعوة" هذا هو المفهوم الصحيح الذي يجب أن يسير عليه الجميع .

وعلى هذا الأساس فلا ينبغي على أي جماعة أو حزب أن يخطئ طرق غيره وأساليبه في الدعوة إلى الله تعالى ويعتمد طرقه وأساليبه هو فقط، لأن الأساس والغرض من الدعوة هو الاهتمام بالجانب الدعوي المثمر والمؤثر في المجتمع بأي أسلوب كان أو منهج أو طريقة صحيحة لها نتائج إيجابية وفعالة ومؤثرة ولها صدىً دعوي في أوساط المجتمع المحتاج للدعوة بكل طريقة أو أسلوب كان، ما دام صحيحاً وذا فعالية .

والنقص كل النقص في اعتقاد أن الدعوة لها أسلوب واحد أمثل فقط يجب على الجميع أن يتبعه، وبسبب هذا المفهوم الخاطئ والتفكير الضيق وقعت كثيراً من الجماعات الإسلامية في خطأ واضح حين اعتقدت أن أسلوبها فقط هو الصحيح وأسلوب غيرها خطأ، فكانت تخطئة الغير فخاً وقع فريسته كثيرون، وكل ذلك مع الأسف أحدث بين المسلمين فرقة عظيمة أوقعت أبناء المسلمين في حيرة وتردد فإلى أي جماعة ينتمون وعلى أي أسلوب دعوي يعتمدون !

ولذلك أقول إنه يجب على الجماعات الإسلامية في أي مجتمع مسلم التنبه لهذا الخطأ الخطير، الذي ولّد ذلك الإنقسام في حين كان الواجب عليهم توحيد جهودهم وتعاضد أساليبهم وتكاتف مناهجهم في الدعوة إلى الله تعالى كلهم سواء كلٌ بما فتح الله تعالى عليه ووهبه القبول في

مجاله، ليتحقق الهدف الأسمى من الدعوة ألا وهو خدمة الإسلام والمسلمين في كل أسقاع الأرض .

النقد السلبي أو "عقدة انتقاص الغير" :

الغرض من النقد دائماً هو التقويم والتنقيح والتوجيه الصحيح لأي موضوع خضع للنقد، لذا ينبغي علينا أن نفرق بين النقد الموضوعي البناء الإيجابي والهادف وبين النقد الخارح الجزافي السلبي غير الدقيق .

هذا النوع تفشى مع الأسف بين الأحزاب والجماعات ورجال العلم والفكر فأفرز أموراً لا تحمد عقباها في كل الأحوال، نتيجة الجُرأة المذمومة لأنها في غير محلها، التي تتجاوز حد المعقول في الحكم على أفكار وآراء الآخرين بغرض الإنتقاص من قدرهم .

إن النقد البناء دوماً يعد من سمات رجال العلم العظماء أهل الوعي والفهم والنضوج الفكري، هدفهم ودافعهم منه بلوغ الحقائق وتصحيح وجهات من وقع في الخطأ، لذا يعد من هذا الباب أداة من أدوات التقييم واستدراك الفوائت وإصلاح العيوب وتلافي الأخطاء .

في حين أن النقد الجارح لا تجده إلا في أوساط المجتمعات والرجال ذوي العقول الضعيفة والنظرة الضيقة والمفاهيم القاصرة عن بلوغ النضج والوعي التام، وهو في هذه الحالة يفسد ولا يصلح ويقوض دعائم النجاح ويهدم ولا يبني ويوبخ ولا يوضح ويهيج شعور وغريزة الانتقام كردة فعل جراء ما يحدث من انتقاص وامتهان .

وبالتالي يجب على المسلم أن يحدد غرضه من النقد فإن كان هدفه الإصلاح والتحقق وجب عندها التركيز على إيضاح الخطأ دون التعرض للأشخاص لأن النقص البشري حاصل لا محالة بين بني البشر، ومن منا لا يخطئ ويقع في الخطأ .

ولكن والذي يهم في الموضوع هو لماذا كثير من الناس يجيد نقد غيره وإظهار عيوبه ولا يجيد إصلاح نفسه وتقويمها وتهذيبها ! ولماذا كثير من الناس يعتبر نقـــده لغيره نقداً فعّالاً وهادفاً وبناءً في حين يعتبر نقد غيره له تجهّماً منه وحقداً عليه .

ولماذا كثير من الناس يرى في النقد رفعة له وأفضلية وظهوراً لشخصه ومعرفة ورجاحة لعقله ! في حين هو يرى نقد الآخرين له أنه من باب الانتقاص والتوبيخ والتحقير من شأنه !

ولذلك فالواجب على الناقد أن يتقي الله تعالى في كل ما يريد نقده وانتقاده، وأن يكون ملماً بما ينتقد، وأن يكون ذا وعي وبصيرة وفهم ولديه القدرة على الاستيعاب والمقارنة بين الأمور، وأن يكون نقده بناء وهادف والغرض منه استدراك ما فات وليس انتقاص شأن الرجال، وأن يكون نقده مبنياً على أسس منهجية لذات الموضوع المطروح وليس معتمداً على وجهة نظر أو رأي مختلف مستحسن تبدَّى له، وأن يكون نقده في محله ونتجت عنه آثار طيبة جراء ذلك النقد المنضبط .

وأخيراً أن يحترم الشخص المنتقد والذي وُجه له النقد تحت اعتبار أن كل البشر تفوتهم أمور دون شك والنقص حاصل فيهم لا محالة .

وإن كان كذلك فلماذا نرى كثيراً من الدعاة ورجال العلم والفكر والفقه من يعيب على غيره أسلوب معين أو طريقه دعوية متبعة رأى فيها الطرف الآخر التأثير في المدعوين !

لماذا يعتقد البعض أن طريقة تفكيره هي المثلى فقط وأن أسلوبه هو الصحيح فقط وأن نظرته هي المصيبة ! وإن كان هناك خطأ في الأسلوب أو نقص في التصور أو قصور في الفهم أو عيب في التفكير فهو ولا شك كائن لدى الطرف الآخر .

وعلى هذا الأساس فقليل جداً من الناس من ينجو من عقدة "كمال الذات" حين يرى نفسه مثالياً في كل شيء وأن تصرفاته هي المقياس للجميع، وقليل منهم من يستطيع أن يغلب نفسه ويقهرها ويحررها من المفاهيم المغلوطة والنظرات الخاطئة التي دوماً ترى كمال النفس في جانبه والنقص في جانب الآخرين .

وختام هذا الموضوع هو وجوب قبول الحق من الجميع، ووجوب رد الباطل من الجميع، ووجوب قبول النقد البناء من الجميع، ووجوب الاعتدال في التصور والتصرفات والطرق والأساليب الدعوية واعتماد كل ما كان مؤثراً في المجتمع وله نتائج إيجابية مثمرة، ووجوب قبول وجهات نظر الغير وعدم رفض موقفه وطريقته وتفكيره وأسلوبه لأنه من باب وجهات النظر إذا لم يكن ذلك الخلاف والتباين كائناً في الأصول والثوابت "الأصول الشرعية والثوابت العقلية" التي لا خلاف فيها ولا نقاش ولا جدال ولا تردد .

الفصل الثاني : طبقات المجتمع المؤثرة

١- المفكرون

٢- الحكماء

٣- التربويون

٤- العلماء

٥- الفقهاء

٦- الأئمة والدعاة

طبقة المفكرين

الفكرة : هي إحدى الخاطرات التي ترد على العقل، وقد يستحسنها العقل فتنتج الرأي الشخصي ويستصوبها الفرد وقد لا يستحسنها .

أو هي طريقة وأسلوب معين يتكون من منهج الفرد وسياسته وخبراته وفهمه لما حوله من الأمور، وكيفية تفكيره ونظره فيها .

والفكرة أحياناً تكون سريعة الخاطرة والانبثاق في العقل ومن ثم يستصوبها الفرد رويداً رويداً بعد مزجها بالواقع .

والفكر هو محاولة الوصول إلى الهدف بالطرق السليمة والأساليب الحسنة، وذلك بدراسة جميع نواحي الموضوع وجوانبه، في حدود وإمكانية العقل .

وكلمة مفكر تطلق على كل من استعمل عقله بأسلوب المنطق الصحيح . ومن هنا نعلم أن أساس هذه الكلمة قديم بقدم الإنسان العاقل والمتفكر في كل ما يجري حوله محاولاً فهم كل ما يحيط به .

والتفكير العقلي هو التفسير المنطقي لكل ما يدور ويرد على العقل ومحاولة توضيحه، لكل ما يحيط بالإنسان في هذا الكون، ومعرفة مدى علاقته به .

وليس كل تفكير سليم، سوى ما كان صائباً ومنطقياً على الوجه الصحيح وبأسلوب سليـــم ضمن حدود العقل والمنطق، مع مراعاة الواقع في نفس الوقت .

وتعني هذه الكلمة استعمال العقل ومنطقه بالأساليب الصحيحة والطرق السليمة، ومعلوم قديماً أن كل عاقل يعتبر مفكراً ومتفكراً لما يجري حوله من ظواهر كونية وعجائب إلهية .

ولكن المفكر اليوم، يعد هو الذي قد شغل نفسه وفكره وجعلها تجول وتحاول إيجاد الأفكار المناسبة لمجتمعه والعلاقة السليمة بين الإنسان وكل ما يحيط به حسب نظرته ومفهومه، ومن ثم يربط ما بينهما بأبسط طرق وأسهل أسلوب، بحيث يتسنى للكل فهمه ومن ثم الاقتناع به، حتى وإن كان اعتماده على الرأي الشخصي بشكل ملحوظ في فكرته .

والمفكرون : هم الذين يفكرون بالشكل الصحيح السليم، ويحاولون إيجاد العلل والأسباب من الأمور وكذا الحلول بالطرق السليمة والسلوكيات والأساليب الصحيحة في حدود العقل وذلك لكل عارض وارد على العقل أو منبثق فيه .

وهم أيضاً يحاولون تفسير الظواهر أحسن وأفضل ما يكون من تفسير عقلي منطقي معاصر متماشي مع الواقع بمدى الانتفاع أو الضرر منه .

وهذه الطبقة تبحث في الأمور بدراسة كل جوانبها الماضية والحاضرة والمستقبلية ليكون حكمها حكماً صائباً ومنطقياً، ومن ثم تصدر حكمها التي توضح فيه ماهية الشيء واتصاله بالإنسان ومدى النفع والضرر منه .

وتعتبر طبقة المفكرين من أولى الطبقات التي اعتمدت على العقل وصوته محاولة مزجه بالواقع، وهذان المنطلقان (العقل والواقع) هما ركائز هذه الطبقة وأهم دعائمها استنتاجاً من واقع حالهم .

وكل فرد في الكون مطلقاً توجد فيه مبادئ هذه الطبقة لا تكاد تنفك منه، فللكل عقل وتفكير . ولكن إذا اعتبرنا أن جميع الناس في الكون مفكرون، إذن فمن هو المستحق لأن نطلق عليه هذا اللفظ !

إن المفكر هو رجل من الناس لا يسمح لعقله أن يتعدى حدوده إلى غير العقلانية، فهو يفكر بمنطق سليم وواقعية تامة، مفسراً الأسباب والدوافع ومبتعداً عن الرغبات والشهوات التي تقدح في كون الفكر سليماً ومنطقياً أو منضبطاً بغير ضوابط الحقائق .

ولا يكون ذلك إلا بقوة إدراك وفهم عميق ودقيق وحكمة أصيلة، لا تتأتى لأي شخص وإن كل عاقلاً كسائر الناس .

ومن هنا نفهم أن من أولويات المفكر النقد التام والتمحيص لكل ما في الحياة، محاولاً إيجاد الغرض السليم من وجوده ودوره الأساس فيها وعلاقته بالإنسان . ومعلوم أن الكل يفكر بعقله، ولكن ليسوا جميعاً سليمي الفكرة صحيحي النظرة، لذلك فالمفكر هو الذي يحاول الوصول إلى الحقائق بما يجده في عقله ونفسه سليماً صحيحاً .

ويجب أن نعلم أن كل فكر سليم يجده كل عاقل وكل فرد على وجه الأرض في قرارة نفسه، فالفكرة السليمة التي توصل إليها فلان من الناس ولا شك وأن المجتمع سيقتنع بها لأن كل الناس إنما يستقون من منبع واحد، وهذا يعني أن الناس مشتركون في معاني الحقائق الموجودة فيهم، وتلك هي الفطرة السليمة والحس الصافي والتي تعد من الحكمة البالغة التي أوجدها الله تعالى في البشر .

وكذلك النظر الفاحص ومحاولة الاستنتاج الصحيح السليم، وتوضيح قدر التأثر بالشيء ومعرفة المفكر أن الفروق في الأفكار وعالم الفكر إنما يكون في الفروع دون الأصول وذلك لاختلاف أمور كثيرة بين الناس (كالبيئة والدين والتقاليد والتربية وأمور وراثية ..) ولكن قيم الأصول توجد في نفوس الكل بنفس المقدار .

ويحاول المفكر دراسة الأمور بموضوعية تامة ودقة وتحقيق أكيد دؤوب وحريص للوصول إلى الحقائق، بعيداً عن الرغبات الشخصية والنزوات النفسية ودون تحيز أو ميل لجانب دون آخر وبلا داعي لذلك .

ويجب أن نعلم أن ديننا الحنيف يدعو الكل أن يكونوا مفكرين ومعلمين، وألا نركن ونعتمد على بعضنا البعض، فللكل عقل صحيح، وفي الكل فطرة سليمة، وليس في ديننا خفاء أو تعقيد يحتاج إلى شرح أو توضيح أو إلى استكمال، فالمسلم من رضي بالله رباً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً وبالإسلام ديناً وشرعاً ومنهجاً قويم .

توجيهات :

استعمل المفكر العقل للوصول إلى الحقائق، مع محاولة دمجه وتناسبه بالواقع، ولكن هناك أمور يجب أن يعلمها كل مفكر :

١- صوغ الفكر في حدود العقل السليم وقدراته وإمكانياته، ومعرفة أن الله تعالى إنما خلق العقل ليقوم بدور محدود في هذه الدنيا، وهذا يعني أن كل من رأى بعقله ما خالف الدين والشرع، فليس ذلك من حدود العقل السليم وإنما من شطحاته ونسج خياله .

٢- معرفة أن حدود العقل متوافقة متماشية مع حدود الشرع والدين .
٣- يجب أن تتماشى معطيات العقل "الفكر" مع الواقع إلا أصبح فكـــراً خيالياً ويجب أن يتماشى الاثنان مع حدود الدين والشرع القـــويم، وألا يخالفاه بدعوى الحضارة، وليس في الشرع القويم ما يدعو إلى التخلـــف، وذلك لأن ديننا الحنيف يثبت ركاب الحضارة ولكن بضـــوابط شـــرعية تحفظ للإنسان أفضل وأرغد عيش في ظل الشرع والعقل ومقتضى الحال "التقدمي" .
٤- مقارنة كل الأفكار بعد دراستها دراسة مستفيضة بمنهج الشرع القويم ومقتضى العقل السليم للوصول لنتائج مثمرة وإيجابية .
٥- الغرض الأساس من الفكر هو الوصول إلى الحقائق المثلى والتي توصل الإنسان إلى السعادة التامة، والفكر السليم يوصل إلى نتائج صحيحة .
٦- وجوب تجنب المفكر وحذره من المؤثرات العرضية لكل فكر، والنظر بمنظار الدين، والتحفظ من الانسياق خلف الأفكار والفلسفات الـــتي لا تعتمد على المنهج الإسلامي بحجة أن كل أساليب العقل يصب في مصب واحد سليم وذلك لا يتحقق إلا بصحة المنهج ومدى التمسك به .
٧- وزن الأمور والأفكار والمبادئ بمعايير العقل والحكمة السليمة والـــتي تدل بدورها وتدعوا إلى الدين والشرع القويم .
٨- وصول المفكر للحقائق لو استعمل الأدوات الموصلة لذلك وتمســـك بمدلولاتها الصحيحة وهي (العقل والفطرة والحس والشرع القويم) .
٩- إطلاق الفكر السليم الممتزج بالواقع المرتكز على الدين .

١٠- وجوب دراسة المفكر كل الأمور التي تهم المجتمع المسلم أو تعتبر مشاكل فيه أو تشكّل عبئاً عليه أو عليها معول الكثير مما في المجتمع، ومن ثم توضيح مدى النفع والضرر للجميع من ذلك الأمر أو المبدأ أو الفكر، وبذلك يكون المفكر قد خدم دينه وثقافته ومجتمعه .

١١- التفكير بموضوعية تامة دون تحيّز، والدقة والتمحيص باستعمال العقل دون الميل للرغبات والنزوات أو التأثر بها، والتحقق من مدى الصحة والخطأ في الأفكار والمبادئ، وقد غفل عن ذلك الكثير .

١٢- مخاطبة الناس بأسلوب العقل السليم والفطرة النيرة والحس المرهف بالطرق السهلة، وبمعنى آخر "مخاطبة الناس على قدر عقولهم" بحيث يتم استيعاب الغرض من الفكر وبالتالي يؤتي ثماره في عالم الواقع .

١٣- يقوم المفكر في المجتمع المسلم مقام الفيلسوف في المجتمعات غير الإسلامية، غير أن الفيلسوف منهجه ومنظوره فلسفي فكري بحت وليس لفكره قيود شرعية يقف عندها، في حين أن منهج ومنظور المفكر الإسلامي يقيد فكره بالضوابط الشرعية .

١٤- صوت العقل يدعو إلى الحق، ولكنه قاصر عن إدراك كل الحقائق وحده لأنه محتاج إلى شريعة ودين يكمّل كل قيمة صحيحة خطرت عليه فالعقل وحده ليس كافياً لأن يجزم الإنسان ويعمل بما اعتقده فقط . ولذلك فلو علم المفكرون أن الدين دين حياة بأسرها لاستغلو جهودهم في التوجيه والإرشاد للتمسك بتعاليم الدين والشرع بدلاً من أن يهملوا ذلك ويفكروا فيما سواه من طرق وأفكار خديجة .

سلبيات وإيجابيات :

لكل طبقة خطأ، والنقص حاصل في كل مخلوق وملازم له، وفي ذلك دليل على أن الإنسان مهما تعلم فهو لم يتعلم شيئاً يذكر، ولكن خطأ هذه الطبقة يعد خطأ فادحاً وخطيراً لأنه يظهر سريعاً في المجتمع ويؤثر فيه بشكل كبير لاعتبار أنهم قادة الفكر والعلم في المجتمع، ولذلك فأخطاؤهم يقع فريستها الكثير من قليلي الوعي والمغيبين وبالأخص طبقة العامة، لأن درجة الخطأ عند هذه الطبقة متفاوتة، فالبعض منهم تكاد أخطاؤه تحصى وتعد، والبعض منهم وقع في أخطاء فادحة كثيرة، ورب قائلٍ منهم بخطأ أو اثنين وهكذا، ومن تلك الأخطاء :

١- فصل بعضهم العقل وحدوده "الفكر" عن الدين والشرع والواقع لاعتقاد أن جميع البشر يشتركون في الفكر السليم في حين أنهم لا يشتركون في الدين لأنهم لا يدينون بدين واحد وعليه فلا يجب إلزام غير المسلم بما يقوله المسلم، والمفروض على المفكر الإسلامي إظهار محاسن تعاليم الإسلام لغير المسلمين وإيضاح أنها منهج حياة متكامل للبشرية أجمع وليس أن ينساق هو خلفهم ويهمل جانب الدين ويجعله آخر ما يلتفت إليه بتلك الحجة الهزيلة .

٢- الكثير منهم يقول ويقول ولا يعمل ويتبنى وهذا خطأ .

٣- القول بصوت العقل فقط وتجاهل صوت العقيدة والدين والشرع .

٤- اعتمادهم على الأفكار المعاصرة منطقياً ومنهجياً، وبحثهم بما يناسب الواقع في مجتمعاتهم تلك، وهم يرونها عين الحق، دون اعتبار

جانب الدين والشريعة في القضية كلها، وعلى ذلك تتم دراسة كثير من الأمور من ناحية واحدة وإهمال كثير من النواحي .

٥- يرى البعض أن جانب الدين قاصر على الجانب التعبدي فقط وليس له تأثير على جانب الفكر والعقل أو الجانب التعاملي في حياة الإنسان، وعلى ذلك فلا رابط بينهما .

٦- لربما أخذ الكثير من مفكري الإسلام عن مفكري الغرب بحجة أن صوت العقل واحد، ولكن، هل اعتقاد الحق والقول به كاعتقاد الباطل والقول به ! وهل من خَلص دينه ومنهجه وثقافته ونقاها وصقلها كمن فسد وتلوث ! وهل من يغالط في الحقائق كالمستبصر المسترشد لها ! إذن فالعقل والدين من منبع واحد ينهلان فعلاً ولكن من أقصى أحدهما عن الآخر فقد أخطأ .

ولا يحمل جانب العقل على جانب الدين فيمحي أثره ودوره، بل على العكس فإن العقل وصوته هو بداية رؤية الحق فقط، وفي إغفال جانبه لصالح جانب الدين غناً للمرء، فالدين يوصل المتمسك به إلى الحق والمنتهى الأسمى، لأن صوته هو شريعة تؤخذ وتطبق بدقة متمثلة في أوامر ونواهي وأحكام وحدود، إذن ففي صوته غناً للفرد عن صوت العقل القاصر عن الوصول إلى الغاية، والذي لا يصدر عنه أمر أو نهي فكيف سيسير على طريق بيّن دون الأخذ عن شريعة ودين .

ولربما كان هناك في المجتمع الغربي الكثير من المبادئ والأفكار الصحيحة والتي يتولد عنها النفع والفائدة لتلك المجتمعات التي لا تقر

الدين ولا تنظر بمنظور الشرع الإسلامي، فهل يا ترى تطبيق مثل هـــذه المبادئ والأفكار في المجتمع المسلم سواء بالتأكيد لا، لأن المفكر وجـــب عليه نفع نفسه ومجتمعه في حدود الشرع القويم بإثراء الفكر الإســـلامي وإحياء التربية الدينية وتنقية الثقافة الأصيلة وصقل المفاهيم الإسلامية من الشبه المثارة حولها لإيضاح جانبها المشرق وتصحيح كل خطأ حاصـــل وتقويم كل فكر قد ينتفع به المجتمع و ...، وكل ذلك يختلف فيه المفكر الإسلامي عن غيره من المفكرين ذوي النظرة العَلمانية والـــتي يســـميها ذووها نظرة "شمولية" .

ولطبقة المفكرين الكثير من المنافع العائدة على المجتمـــع، فهـــم رواد الفكر فيه والقائلين بصوته والمقيمين لقيمه ومنهجه، ولكن ذلك يتحقـــق بكون مفكريه يعتمدون على الدين والشريعة الإسلامية .

وعموماً ينبغي أن يكون المفكر شخصاً قويماً معتدلاً استطاع أن يحرر ذاته من الرغبات والشهوات والشبهات النفسية، وأن يكون لديـــه إدراك تام نير وسليم قائم على النباهة والنقد التام والتمحيص والدقة الفائقة لبيان الصحيح من الخاطئ في كل مجتمع .

وقد يوجد في بعض المجتمعات وربما بكثرة بعض المفكرين الداعين إلى تحرر المجتمعات من عبودية بعض الأفكار المتأثر بها المجتمع، في حين أنه لم يستطع هو من أن يحرر عقله من سيطرة بعض رغباته عليه أو ما يراه حقاً وهو باطل متأثراً بغيره، فكيف سيحرر غيره من الناس يا ترى وهـــو لم يستطع أن يحرر نفسه .

طبقة الحكماء

الحكمة : هي القول الفصيح البليغ الموجز والذي يضرب في المواقف التي تستدعيه . أو هي قاعدة صغيرة من قواعد العقل البشري تحوي معاني كثيرة لا يتخطاها أي إنسان عاقل .

وهي أيضاً العلم بحقائق الأمور، والنظر في عواقبها دون الاغترار بظواهرها الأولية .

وهذه الكلمة قديمة بقدم الإنسان على وجه الأرض، ففي كل قوم ومجتمع طبقات مختلفة منها طبقة الحكماء النبلاء .

وقديماً كانت الحكمة هي البحث عن أسرار الكون وكل ما فيه وكذا كل ما يحيط بالإنسان ونوع علاقته به .

إذن فكل عقل يحوي الحكمة في طياته، ولكن الناس ليسوا سواء في قدراتهم وإمكانياتهم، لذلك لم تطلق هذه الكلمة على كل إنسان بل خصصت لمن جرد نفسه وفرغها من الشهوات والشبهات حتى خلصت للحكمة وأخذت ترقى في مراتبها، وأدركت الكثير من الحقائق في هذا الكون ووصلت إلى الكثير من أسراره .

ولما أدرك الإنسان أن هذا الكون المحيط به له أسرار، أخذ يفكر في أنحائه وفي كل شيء حوله وحقيقة الأشياء الذي يراها ويعايشها وما هو الغرض منها ! ومن هو خالق الكون وموجده ! ومن تلك النقطة بدأت الحكمة تأخذ طريقها مثل كل شيء بدأ ثم تطور مع الزمن .

وحاول الإنسان الأول ثم حاول بعدما استعمل عقله ومدركاته وعين بصيرته و لم يتأثر بالظواهر المرئية حتى وصل إلى معاني ومبـــادئ كثـــيرة لاحت له فتمسك ببعضها واعتمد على بعض آخر منها وطفق يقنن حياته ويضع مبادئه فيها .

والحكماء : هم طبقة من الناس ينظرون بعين بصائرهم قبـــل عـــين أبصارهم ويقيسون الأمر وعواقبه ومدى محامده ومذامه .

وهؤلاء الحكماء تتأتى لهم الحكمة من طول خبرتهم وحسن تقديرهم ونظرهم بعين البصيرة في الأمور وعدم الاغترار بظواهرها، وهم يهتمون بالعواقب قبل الخوض في غمار الشيء .

وقيل إن الحكيم هو الذي لا يورط نفسه ثم يحاول إخراجها وإنما هو الذي يحسب حساب الأمور قبل أن يتورط .

ويعد الحكماء من كبار الناس وأشراف القوم الأحرار الكرام الـــذين خلصوا للحكمة وحسن التدبير وتركوا سفاسف الأمور وابتعـــدوا عـــن المحقرات من كل شيء، وذلك هو السبب الذي فـــرض علـــى النـــاس احترامهم في كل زمان .

وتعتبر هذه الطبقة من أنبل وأشرف الطبقات في كل مجتمع، فلا يكاد يخلو مجتمع على وجه الأرض من حكماء فيه، وتكاد أن تكـــون هـــذه الطبقة هي التي قادت الكثير من المجتمعات حيناً من الـــزمن، فيتصـــرف المجتمع بحسبما يراه حكمائه، فهي ترغب وتنمي حب الخير وتنادي بحسن الفعال والأخلاق والفضائل وتنهى عن الأخلاق السافلة والرذائل .

وكما هو معلوم أن الحكمة والفضائل موجودة في كل عقل بشري ولكن ليس بنفس القدر، وعلى ذلك فالفضائل هي الفضائل في كل مجتمع، وكذا الرذائل، وحكماء العالم كله يكادون أن يكونوا مجمعين في مبادئهم ونظراتهم إذا ابتعدوا عن الشهوات والشبهات، فنظرتهم واحدة وذات منطلق واحد خلا بعض الأمور .

ولربما كل الحكماء في كل زمان داعون إلى نشر الفضيلة والخير ومكارم الأخلاق، ولكن هل كلهم مصيب ! لربما كانت نظرة بعضهم دنيوية قاصرة فهي لا ترى جانب الدين من أسس الحكمة وبواعثها بل أن بعضهم يرى عكس ذلك، فتجتنبه، مدعين أن الدين ليس له تأثير على حياة الفرد والمجتمع، وليس له أي دور في التربية والتعليم، فاتخذت من الحكمة وسيلة للضلال والإضلال، وبما أنهم سيدو كل مجتمع فقد انخدع بهم الكثير من العامة والجهلة والمثقفين من المغرر بهم .

توجيهات :

اعتبر الناس في كل مجتمع أن هذه الطبقة هي التي تتخلق بالأخلاق الحسنة وتسعى للفضائل وتحث عليها وتتكلم بها، ولكن هناك أموراً ربما غابت عن الكثير منهم، ومن ذلك :

١- معرفة أن الحكمة مقصدها خير ونهايتها إلى خير وذلك لأنها من مقتضيات الفطرة السليمة ومما دعى إليه الشرع القويم .

٢- معرفة أن إقامة الفضائل ومنع الرذائل ليس فقط من الخلق الحسن بل ومن الأمور التي وُجِد من أجلها الدين وأكدت وحثت عليها الشرائع .

٣- معرفة أن الحكمة السليمة تتأتى لكل مخلوق عاقل وإن لم يستطع أن يصوغها بلسانه، ولكنه مؤمن بصحتها ومعتقد بمفعولها بعد سماعها .

٤- ليس هناك حكمة لقوم دون آخرين، وذلك ما يسول للبعض ويسوغ لهم الخروج إلى معاني يزعمون أنها من الحكمة وهي غير ذلك، لأهداف تخدم مصالحهم .

٥- ليس من الحكمة ما يناقض منهج الدين والشرائع السماوية ويعارضها ويدعو إلى عدم التمسك بحدود وأحكام الشرع .

٦- كل الشرائع الربانية تدعو إلى الحكمة، ومعنى ذلك أن كل ما دعت إليه فهو مما يوصل الفرد والمجتمع إلى الخير وإلى السعادة . فالحكمة من الدين والدين يدعو إلى الحكمة فهما شيئان لا ينفصلان أبدا .

٧- توضيح قيم الفضائل وحسن عاقبتها على الفرد والمجتمع، إذا ما تفشت فيه، وكذا توضيح خطر الرذيلة وسوء عاقبتها على الفرد والمجتمع إذا ما تفشت فيه .

٨- زرع حب الفضائل والمكارم في النفوس والدعوة إليها وتربية النشء عليها، ونشر حب الحكمة والخير والعواقب الحسنة المجنية من ذلك .

٩- تحذير المجتمع من الأفكار والمبادئ والمقاصد والظواهر والأمور الفاسدة سيئة المغزى، والتي قد يغتر بها الكثير فينخدع وينساق خلف الوهم ومن ثم بيان عاقبتها غير الحميدة على الفرد والمجتمع .

١٠- بإصلاح الفرد يكون صلاح الأسرة والتي بصلاحها يكون صلاح المجتمع بأسره .

١١- غرس حب الدين والفضائل في نفوس النشء والتمسك بحدود وأحكام الشرع، وتعليم أن في ذلك أكبر حكمة بالغة تعود بالخير على الجميع .

١٢- الحِكم معارف عقلانية تتأتي للفرد ثم يُعمل بمضمونها، وليس معرفة مجردة من العمل .

سلبيات وإيجابيات :

لكل حكيم طريقة وأسلوب في إقناع من حوله، معتمداً في ذلك على أساليب وطرق منها الصحيح، ومنها الخاطئ والذي منه :

١- عدم ربط قيم الأخلاق والمكارم والحِكم بالدين والشرع، وذلك بفصل القيم عن معانى الشريعة، ومحاولة إيضاح أن لكل منها مجال مستقل ومنفصل عن الآخر، وأنه يمكن للفرد والمجتمع إقامة فضيلة دون إقامة دين وشرع كما نراه في المجتمعات الغربية والعَلمانية .

٢- تأسيس الحكمة وتأصيلها على أساس شخصي أو قومي يحقق مصلحة ومنفعة ذويها، وليس على أساس إنساني وشرعي شامل المنظور .

٣- عدم تمحيص الحكمة ومنبعها الأساس والمغزى منه وما إذا كان منطلقها دينياً أو غيره . واعتماد البعض على المعاني المحضة التي لا تقر معنى الشريعة والدين في عالمها بل وربما دعت لمحاربتها .

٤- القول بأن هناك من لا يصلح للحكمة والعلم بها ومن ثم العمل، لأنه قاصر عن إدراك معانيها وقيمها الخفية، وذلك جهلاً بيناً منه، وكأن الحِكم هي للنخبة من الناس فقط .

فائدة الحكماء النبلاء في كل مجتمع لا تكاد تخفى على أحد، فـــبهم يصلح المجتمع ويرقى إلى الفضائل والقيم العليا وإلى أسمى الأخلاق الحميدة الحسنة وكذا إلى محاربة الرذيلة ومنعها فيما بينهم، إذ بشـــقائهم يشـــقى المجتمع وكما ينتشر الفساد بفسادهم .

والحكماء لهم الدور الأكبر في دفع عجلة التقدم الخلقي والتطـــور في مجال المعاملات الإنسانية والفكر السليم .

وديننا الحنيف يدعو إلى تحقيق عدة أمور :

١- أن إقامة الشرع من أسس الحكمة، وفي ذلك فائدة، وكما جـــاء في الأثر "إن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها" .

٢- إن الحكمة هي إدراك العواقب، لذلك ينبغي التمسك بمـــا كانـــت عواقبه حميدة وحسنه، ولا سيما أن مبادئ الشرع كلها تدعو إلى المكارم والفضائل، بل والغرض الرئيس من إقامتها هو الوصول إلى مجتمع تحققت فيه القيم العليا والمثلى .

٣- كل حكمة لا تسهم في رقي الفرد والمجتمع فهي نقمة وضلالة، وتعتبر عبئاً مكلفاً على أفراد المجتمع .

وللحكماء دور بارز وفعّال في حياة الفرد والمجتمع ينبغي اســـتغلاله على أتم وجه وأحسنه، حتى ينتفع المجتمع منه وبه ، وبذلك يسود الخـــير ويدحض الشر وينتهي .

طبقة التربويين

التربية : هي التقويم على أسلوب معين، والتوجيه على طريقة مخصصة مرجوة . أو هي التنشئة على مبادئ وقيم وأخلاق مقصودة يتربى عليها الطفل وفي ظلها يتعلم كل هدف يخدم مصالح تلك التربية .

وهي كذلك التعليم بالطرق المرجوة وبأساليب معينة كي ينتج الفرد على سلوك مقنن مستقبلاً في المجتمع فيعمل فيه كعضو فاعل .

والمربي يقوم بدور بارز في المجتمع الذي هو فيه، فينشأ الطفل في ذاك المجتمع متأثراً بقيمه وأخلاقه ومعتقداته، ويصبح فيما بعد عضواً فاعلاً وداعية إلى تلك التوجيهات والقيم التي تشبَّع بها عقله وباطنه .

وقد نشأت هذه الكلمة مع كل مجتمع وشعب منذ القدم، والهدف منها تربية قوته وطاقاته وقدراته ألا وهم شبابه، لكل ما يحقق به أهدافه ومساعيه، فينظم ويهذب ويربي أطفاله حسبما يرى، ولربما كان من المفروض أن تكون التربية على حب الفضائل وخير الخصال وأحسن الفعال ونبذ الرذائل والبعد عنها في كل مجتمع، ولكن الحاصل اليوم في أكثرها غير ذلك، فقد يربى الأطفال على أهداف معينة مغرضة يقصدها المجتمع ليس من ورائها إلا خدمة مصالحه وقضاياه .

ومنذ القدم وكلمة التربية ترن في جوانب الكون في كل مجتمع وقوم، وما من حضارة إلا ولها قيم تدعو إليها وتخط للفرد منذ صغره الخطوط والمعتقدات والأفكار والمبادئ التي تريدها وتوجهه كيفما أرادت حتى يصبح أحد الدعاة المخلصين لكل ما تعلمه .

والمربون (التربويون) : هم الذين خصصوا أنفسهم لتقويم وإرشاد وتوجيه النشء والأجيال ووضع الطرق والأساليب لتعليمهم كل القيم والأخلاق المرجوة في ذلك المجتمع .

فهذه الطبقة هي المسؤولة عن تغذية أجيال المجتمع بكل القيم والمثل والأخلاق التي ترنوها، وذلك من المنطلق الذي يعتبره المجتمع نافعاً وقويماً وصالحاً لأبنائه، فتقوم بتعريف الطفل المتعطش كل ما تريد وكيفما تريد، لذا فمسؤولية المربي ليست بالسهلة ولا باليسيرة .

والشباب قوة وثروة المجتمعات، وكل مجتمع له أسلوبه في التربية، وله أهدافه التي يربي عليها النشء كي يغدو عنصراً صالحاً لما قصدوه فيحقق معهم كل هدف ومأمول .

وتعتبر هذه الطبقة أولى الطبقات اهتماماً بالطفل، والذي يعتبر لديها نقطة ارتكاز تقوم به وعليه مستقبلاً كل ما تريده من أغراض معينة وأهداف مرجوة، فتحاول تنظيم وتوظيف قدراته وطاقاته لمصالح المجتمع المرجوه .

والأصل في التربية قصد الخير من تهذيب الطفل وحمايته من شرور نفسه وغيره، وتربيته على الفضائل والمكارم، ولكن الواقع الآن أن كل مجتمع صار يربي أطفاله على المعتقدات والقيم والأخلاق والأفكار والمبادئ الذي يريدها هو والتي تخدم مصالحه، بل وتحذره من كل فكر وخلق يناقض ما تشبع به من قبل، وبذلك نشأت مجتمعات ترى الرذائل فضائل، وذلك لما اختلط الخير بالشر فضاع .

وكل مجتمع يختلف عن الآخر من حيث المربين، بحسب القيم المنتشرة فيه وأفكاره ومبادئه ومعتقداته، وبالتالي فكل مجتمع سيصقل أطفاله كما يريد ولما يريد، وكأنه يجند جنداً لا يعرف ولا يعترف إلا بما قد أملي عليه من أفكار ومبادئ ومعتقدات وأخلاق وقيم .

والطفل دون شك يتأثر بمعلمه ومربيه فيتخلق بأخلاقه ويتمسك بأفكاره ومبادئه، والذي ما يلبث أن يصبح من أكبر دعاتها وأنصارها .

توجيهات :

تعتبر طبقة المربين طبقة حرجة في حياة الإنسان، وذلك لأنها تعتبر سلاحاً ذا حدين، إما أن يستغل في تربية الخير وفضائله أو أن تستغل في غير ذلك ولأي قصد كان . ولذلك فمما قد أغفله الكثير منهم في معظم المجتمعات :

١- الاعتقاد التام واليقيني بمفعول منهج الدين في حياة الإنسان، والتربية السليمة ما تماشت مع الشرع معترفةً بحقيقة وشمولية وقيمة مبادئ الدين وما يدعو إليه .

٢- تطوير طرق التربية وأساليبها لتكون في منفعة الفرد والمجتمع .

٣- تعظيم قيمة القيم والمبادئ والأخلاق والفضائل والمعتقدات الشرعية في نفسية الطفل، بتوضيح الصحيح من الفاسد منها .

٤- معلومية وحدة الهدف بالأفكار السليمة في كل مجتمع .

٥- التحقق من كل فكرة ومدى نفعها وضررها على الجميع . ووجوب بيان الأفكار والمبادئ والمعتقدات الهدامة للفرد والمجتمع .

٦- عدم التأثر بكل ما يقال والنظر الفاحص المدقق لكل ما يرد من أساليب تربوية غير إسلامية وألا نسلم لشيء إلا بعد فحص تام ونقد دقيق بناء فتحصل الفائدة .

٧- ليس من التربية السليمة مخالفة الدين أو الشرع، ولذا ينبغي غرس قيمة ذلك في نفسية الطفل، فيعلم أن من التربية العمل بكل ما جاء به الشرع والدين والتصديق به .

٨- الطفل صفحة بيضاء نقية يجب استغلالها بالشكل المطلوب بتعليمه وتربيته لكل ما يعود على المجتمع بالنفع والفائدة .

٩- اعتماد الطرق السهلة والميسرة للتربية والتعليم بوضع المناهج الهادفة المثمرة والسير عليها كخطة معتمدة محكمة الصياغة والوضع .

١٠- تعليم الطفل المفاهيم والقيم الأصيلة "الأخلاقية والشرعية" المغروسة مسبقاً في نفسه، وكيفية نبذه كل ما يناقضها بتعليمه طريقة التفريق بين الحق والباطل وكيفية استنتاج ذلك وكشفه ببساطه .

١١- الاهتمام بالفروق الفردية والقدرات والطاقات بين الأطفال .

١٢- مراعاة الوضع الاجتماعي للطفل والاستفادة من ذلك .

١٣- الحفاظ على الطفل من كل ما يؤثر على أفكاره ومبادئه ومعتقداته التي تعلمها، أو يشوبها .

سلبيات وإيجابيات :

تعتبر هذه الطبقة من أخطر الطبقات في المجتمع ولربما أخطرها إطلاقاً، وذلك لأن المربي باستطاعته أن ينشئ أجيالاً على أفكار خاطئة تماماً،

لذلك فمهمته جليلة وتعتبر في غاية الدقة والحرج والتأثير، وعليه فينبغي الحذر كل الحذر من أساليب المربين الخاطئة والتي منها :

١- إهمال الجانب الديني في التربية وأصولها، والتركيز على جانب الإنسانية في التربية والتكلم بلغتها، وإهمال جانب الدين في ذلك، في محاولة الفصل بينهما .

٢- إدخال تربية أجنبية ليست من الدين في شيء .

٣- غياب القدوة الحسنة والتي تعد أساس التربية وذلك لأن لسان الحال "القدوة" أقوى من لسان المقال "التوجيه والإرشاد" .

٤- عدم مراعاة الفروق والقدرات والطاقات بين الأطفال .

٥- تشويش ذهن الطفل وشغل فكره بأمور أكبر من سنة مما يبلبل ذاكرته ويغرس في نفسه التردد والريبة في أموره وقراراته مستقبلاً .

٦- من أصول التربية السليمة تعليم أصول الدين وقيمه ومبادئه، وكذا من أصول الدين الدعوة إلى التعليم والتربية والتخلق بالأخلاق الحسنة والتمسك بالفضائل .

وطبقة التربويين هي عداد المجتمع وهم الذي خصصوا أنفسهم ليقوموا بتربية أبنائه وطاقاته وتقويمهم،كي يحصل المجتمع على الثمرات اليانعة نتيجة الجهد المبذول في تهذيب أبنائه بأفكاره ومبادئه ومعتقداته، فهذه الطبقة هي التي تشكل الخامة اليانعة الجاهزة (الأطفال) فتقوم بصقل عقولهم ونفوسهم وجوهرهم الثمين . والمجتمع هو الذي يحصد نتيجة زرع هذه الطبقة التي كللت جهودها في سنين الزرع والعمل الدؤوب .

لذلك فهذه الطبقة تعد من أخطر الطبقات فعلاً في كـــل مجتمـــع، وتأثيرها مباشرٌ على عقول النشء الصافي الذهن والذي يتقبل كل ما يملى عليه دون تمييز للحق من الباطل، والصحيح من الخاطئ .

والمربي سلاح فعّال، والطفل ثروة ثمينة، لذا فإن أردنـــا أن يكـــون شبابنا صالحاً، فيجب أن تكون تربيتهم على أيدي أمينة من مربين ذوي توجه إسلامي صحيحي المعتقد والفكر والمبدأ، وألا يكون قـــد تلـــوث بأفكار وثقافات غير صحيحة أو سليمة أو ذات دعوى غير دينية شرعية أو لدوافع شخصية أو غرضية أو غيرها ...

ولذلك فإننا لنجد الآن الكثير من المجتمعات مفككة الأواصر منحلة الثقافة سيئة الأفكار رديئة المبادئ سقيمة المعتقـــد بسبب سوء التربيـــة والتقويم، ولأن الكثير من المربين اليوم لا يعرفون معنى التربيـــة، فضلاً عن تعليمها لغيرهم "ففاقد الشيء لا يعطيه" .

وإضافة إلى أن الكثير منهم لم يجد من يربيه يوماً من الأيام ويعلمـــه إياها، فكيف سيعلمها غيره إذا كان هو لا يعلم من منهجها ومبادئهـــا شيئاً، وأيضاً وإن وجد المتعلم منها شيئاً تجده ملوث الفكـــر منحـــرف المبادئ متأثر بثقافات منزوعة القيم فيبدأ بالتفلســـف بـــدعاوى غربيـــة كالتقدم والتطور والمدنية والإنسانية وغيرها، مهملاً كل الإهمال جانـــب الشريعة الإسلامية والقيم الأخلاقية الأصيلة التي يحث عليها الإسلام .

ومن عيوب المربين في عالمنا المعاصر اليوم أيضاً، التكلم بلسان الدين والشرع في نشر وتعليم كل المبادئ والقيم والأفكار والمعتقدات لكل ما

يناسب هواهم، وإذا ما وجدوا شيئاً لا تهواه عقولهم نسبوه إلى المدنيـــة والتقدم والحضارة والإنسانية، مدعين أن تلك القيم والمبادئ لم يتعرض لها الإسلام بذكر، فكان ولا بد من ذكرها وإيجادها، فنظرتهم ثاقبةً لتحقيـــق تلك الأهداف من وراء تلك القيم (كما يزعمون) .

ولعل أي صاحب لب أو أدنى تفكير، ليعلم أنه ما ثمة قيمة أغفلهـــا الإسلام أو تجاهلها، وإنما اتبع أولئك الهوى والشهوات والـــتي وجـــدوا الإسلام يقف عقبة أمامهم، فحاولوا إيجاد مخرج لهم فكانت دعوى المدنية والإنسانية، ولم يكتفوا بذلك، بل ووسموا الإسلام بالرجعيـــة والتخلـــف والتطرف في كثير من الأحيان، وكل ذلك من الإفك والبهتان والحقـــد الظاهر البيّن .

طبقة العلماء

العلم : هو الإحاطة بالشيء وإدراك معانيه والحكمة منها، وكذا هو معرفة جوانب الأمر ومتعلقاته . أو هو الدراية والوعي لأمر ما، ودراسة جوانبه أو بعضها وإدراك وفهم مضامينها ومدلولاتها .

وهو نوعان، علم (عقل) مدرك بحدود الفكر والفطرة والمنطق السليم وعلم (نقل) يدرك بالتحصيل والدأب والتقصي والبحث والمذاكرة له والعلم الشرعي منه مستمد من شرع الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ .

ويدرك العلم بالجوارح كلها، كالبصر بالعين والسمع بالأذن والفهم بالعقل والوعي بالقلب والتطبيق بباقي الأعضاء .

وكلمة العلم هي كلمة تطلق على الحال أقوى منها على المقال، وذلك لأن الإنسان مذ عرف نفسه وهو لا يزال يتعلم ويتعلم، ومهما تعلم فهو لا يزال يجهل الكثير والكثير، ولكن وكلما تعلم الإنسان علم أنه جاهل بالكثير وأيقن أنه ما علم شيئاً يذكر، وكلما بقي جاهلاً ظن نفسه قد حوى الكثير من العلم .

وبدأت كلمة العلم بلسان الحال فترة من الزمن (علماً فكرياً) في حياة الإنسان يمارسه دون دراسة أو تكريساً لجهد له، حتى أيقن الإنسان أنه لا بد له من علم ينهل منه، ومن تلك النقطة بدأ العلم يأخذ مجراه دراسة ورواية ودراية ونقلاً وبحثاً وتقصي عن منابعه ومناهجه .

ولما بدأ العلم يشق طريقه، بدأت العلوم تقنن وتقسم في كل مجال وبدأ البحث والتحري في كل نواحي العلوم وشعر الإنسان أنه بحاجة

ماسة للمزيد من العلم، لأن ذلك ينفعه كثيراً في كل مجالات الحياة وجوانبها وبالتالي سيحقق سعادته .

وفي الآونة الأخيرة وللأسف ولما بدأت العلوم تأخذ مجراها ساء استغلال الإنسان له، فربما صار العلم أسلوباً للتدمير والاستعمار وللإضرار بالغير، وتحول العلم من ميدان نفع إلى ميدان ضرر وإرهاب وتحكّم واحتكار وتسلّط في بعض مجالات ونواحي الحياة .

والعلماء : هم طبقة من الناس فرغوا أنفسهم من الشغل إلا بالعلم وأحاطوه كل عنايتهم، ثم صاروا علماء معلمين دراية ورواية .

والعلماء طبقة تحرص على الوقت واستغلاله في التحصيل والإستزادة من العلم فينهلون من كل عين ومنبع يجدون فيه بغيتهم ويقضون فيه نهمهم، وهم لا يشبعون ولا يكلون منه فيتعلمون ومن ثم يعلمون .

ومبادئ طبقة العلماء تعتبر من أهم المبادئ في حياة الإنسان ولا سيما وأن العلم هو النور الذي يهتدي ويسير به إلى السعادة، ومن أهم تلك المبادئ والأغراض استغلال الوقت واغتنامه لأنه هو الثروة الحقيقية والتي تهيئ للفرد أن يحصّل العلوم فيتعلم أكبر قدر ممكن منه ومن ثم يعلمه لغيره فينتفع بذلك الجميع ويرقى المجتمع، ومعرفة شمولية العلم والتي تقتضي النزاهة والأمانة في تعلمه ونقله فليس هنالك علم شرقي أو غربي مخصوص بقوم دون آخرين، ونشر العلم وتوعيته وغرس حبه في نفوس النشء مما يولد مجتمعاً مثقفاً واعياً متعلماً فيسهم مستقبلاً في تطوير الأمم والشعوب وإظهار أن من أولويات العلم التأدب بآدابه واحترامه ومدرسيه وتقديرهم

وأن رفعة شأنهم إنما لأجل العلم وتيسير طرق التعلم وأساليبه والتي تسهل على طالبه أخذه بسهولة ومعرفة أن الهدف الأسمى من العلم وميادينه هو الوصول إلى السعادة الإنسانية والتقدم والتطور ولـــيس اتخـــاذه ذريعـــة باستعماله في الضرر بالآخرين والتعالي عليهم .

توجيهات :

شأن هذه الطبقة كبير ومهم في حياة الفرد والمجتمع، وكذا في دفـــع عجلة التقدم والرقي والثقافة الإنسانية، ولذا فلها الأثر الأكبر واليد الطولى في تطوير جميع النواحي والمجالات الحياتية في كل مجتمع، ابتداءً من تنشأة الأجيال، ولذا فمما ينبغي أن يعلم :

١- معرفة أن الدين لا يحارب العلم ولا يناقضه بل يدعو إليه ويؤيـــده، وأن الدعوة إلى فصلهما عن بعض هي نظرة العَلمانية القاصرة .

٢- النزاهة والأمانة التي تعتبر هي أساس إجلال العالِم عن غيره .

٣- تحقق القدوة الحسنة في رجل العلم والبدء بإصلاح النفس قبل إصلاح الغير ثم إصلاح ذويه ثم إصلاح بقية الأفراد وهكذا يتوسع نطاق الدعوة .

٣- عقيدة العالم في نفسه ومنهجه ومبادئه وفلسفته والتي ينبغي أن يكون القصد منها خدمة دينه ونفسه ومجتمعه، ولذلك وجب على العالم صقل جوهره وإصلاح ذاته ومعالجة عيوبه وتنقية نفسه وتصفيتها من الشهوات والشبهات .

٤- ليس في العلم (علم العقل) مجال للرأي بل للاستنباط والتفكير، فـــلا مجال للنظر القاصر وإنما للنظر الواسع الشامل لمغزى العلم .

٥- تقوية الحجة وإظهار البينة بالأساليب الواضحة لـــدحض أيّ تقـــوّل باطل أو شبه أو إدعاءات أو بدع .

٦- اتخاذ السهولة والبيان لتوضيح المعاني وخصوصاً للمبتدئين من الطلبة حتى لا يتولد لديهم نتائج عكسية وردود فعل متناقضة فيشعرون بالملـــل والضيق وبالتالي يفقدون أهمية وقيمة العلم، والبعد عن التعامل بالغلظـــة والجفاء مع طلبة العلم فإن في ذلك تفويتاً وإهداراً الكثير من الخير .

٧- عدم القول والجزم في أمر والقطع به إلا بعـــد الإطـــلاع الواســـع المستفيض والتحري الدقيق بالنظر الفاحص في مقتضياته .

٨- إن العلم يعد من أشرف الأمور والتي ينبغي عـــدم التفـــريط فيهـــا والإعراض عنها زهداً فيه وفي قدره، لذا وجب إظهار وتوضيح قيمة كل العلوم والفائدة من دراستها ومن ثم نتائجها وأهدافها المرجوه .

٩- التنوع في الدعوة إلى الله تعالى بتعدد الطرق والأساليب، ونشر العلم بكل الأساليب الشيّقة والوسائل الممكنة من مقروء ومشاهد ومسموع .

١٠- توضيح الأمور بالقول الموجز الدال على المعنى دون إطالة مملة .

١١- الحذر من إعجاب كل ذي رأي برأيه، واحترام كل ذي قدر وإن كان قدراً صغيراً، وتوضيح الخطأ بسهولة بالغة دون تحيز أو تعصب .

١٢- التحفظ من العلماء ذوي المنهج الخاطئ ولا سيما غـــير المســـلمين الذين ينظرون نظرةً عَلمانيةً بفصلهم الدين عن مجالات الحياة الأخرى .

١٣- دلالة الأفراد ولا سيما طلبة العلم على الكتـــب النافعـــة المفيـــدة والتحذير من كتب أهل الباطل المفسدة على المرء دينه وعقيدته .

١٤- اللين والرأفة في تعاملهم مع الجميع ومساعدة المحتاج منهم .
١٥- تحذير المجتمع من كل الآفات الآنية الدخيلة عليه والأفكار والمبادئ والمعتقدات الملوثة والتنبيه والتمحيص والتحقق من كل ذلك، ومعالجة مشكلات العصر والواقع في المجتمع، بتوضيح النافع والضار من كل الأمور وعواقبها ومقتضياتها، والتحذير من البدع والشبه والأباطيل الموجودة في المجتمع، والتطرق للأمور المعاصرة ولا سيما الاجتماعية والدينية منها، والتي لربما سببت بلبلة لدى البعض لجهلهم بها .
١٦- ربط قيم الدين بالعلم وبالحياة كوحدة واحدة لا تتجزأ ولا تتبعض، وذلك لأن العلم الشرعي ينفع الله به كل مسلم في حياته الواقعية المعيشية، والعبرة كما قيل من العلم تكمل "في العمل والتطبيق" .
١٧- ربط جانبي الدين والدنيا، وأن قيم العلم للدين والدنيا معاً، وليس لأحدهما دون الآخر، وذلك لأن قيمة العلم مستمدة من الدين .

سلبيات وإيجابيات :

يعتبر العلماء قادة المجتمعات ورواد القيم فيها، فهم الحرس الذي يحمي معتقدات الأمة وأفكارها ومبادئها، لذلك فالهفوة والغلطة من العالم قد تجر الويلات على العامة من الناس والذين من شأنهم التقليد والاتكال على قادة العلم ورواده بعد الله تعالى .

لذا فينبغي الدقة والتحري والتحقق من كل كلمة يتفوهون بها والحذر من الانسياق خلف أفكار ومبادئ هدامة للدين والدنيا بدعوى التقدم والمدنية والتطور، ولذلك فمن الأخطاء الذي قد يقع فيها البعض :

١- فصل السياسة أو العلم عن الدين، عند البعض .

٢- إهمال الجانب التربوي والتأثير النفسي عند البعض، مع العلم أن للجانب النفسي أثراً كبيراً في الإقناع بالمبادئ والأفكار ومدى نفعها وضررها، وذلك بالطرق الصحيحة السليمة .

٣- صعوبة التعامل مع بعض العلماء وكذا الوصول إليهم، نتيجة الفارق الاجتماعي والتكلف الزائد من البعض والذي سببه المكانة العلمية أو الوضع المالي أو المنصب العملي، فأين التوضع واللين والقرب من الناس من كل ذلك، وما فائدة العلم إذا لم يعمل به المسلم في حياته ! أم أن التواضع واللين وخفض الجناح كلام يلقى على الغير من الناس فقط ولا يطبقه العَالِم في حياته ! وهل العلم يسمو بأخلاق صاحبه أم يسمو به !

٤- الكثير من العلماء يحاول الدعوة بمفردة ويرى أنه في ذلك أكثر تأثيراً في حين أن في التكاتف وتنوّع طرق الدعوة والتعليم قوة في المبدأ ودقة في صقله، ولذا كان من الأفضل الاستفادة من طرق الغير ومن أساليبهم وعدم القصور على المنهج الشخصي فقط وخصوصاً ممن له تجارب في هذا المجال أدّت ثمارها .

٥- استحسان البعض رأيه أو إعجابه بفكرة ما أو افتتانه بمبدأٍ . وما ينتج عنه من التفرد بتقرير مسألة ما ولا سيما حال الخلاف .

٦- نشوب خصام ومهاترات بين البعض نتيجة خلاف في الرأي ومن ثم الخروج عن الحق الهادف للوصول إلى الحقيقة، إلى الجدل العقيم والتنقيص من حق الغير ودحض الحجة بالحجة .

٧- عدم الاستفادة من البحوث والدراسات التي تجري في الأكاديميات "المعاهد، الجامعات، الكليات" ويكتفى بصفها في الرفوف دون نشر لها .

٨- حصر العلم في دور أكاديمية كالمدارس والجامعات والكليات فقط، مما جعله حكراً على الطلبة المنتظمين في تلك الأماكن فقط ولا دور يذكر لحلقات العلم في المساجد والمجالس العلمية .

٩- الكثير من العلماء يغفل عن الاهتمام بذويه، فتجده يجهد في إصلاح الناس والنصح لهم ويغفل عن أهل بيته وأقاربه وكان الأولى بعد إصلاح النفس إصلاح الأهل والإنشغال بذلك قبل توسيع دائرة الدعوة وإيصالها للغير من الناس، وإذا كانت دعوة الغير سنة فهي في حق الأهل واجب .

وفضل هذه الطبقة كبير جداً على الفرد والمجتمع ولا يكاد يخفى على أحد من الناس، فهم ورثة الأنبياء وهم قوة كل أمة وعزها وحراسها الأمناء والذين يحمون ثقافة المجتمع وأفكاره ومبادئه ومعتقداته من التلوث وإشابة الحق بالباطل والخير بالشر والفضائل بالرذائل .

ولا ينشأ جيل إلا على أكتاف علماء ورجال أكفاء مهدوا لهم الطرق والسبل السهلة لينهلوا من العلم ما شاؤوا، ومن ثم يبنى صرح كل أمة مجيداً بفضل الله تعالى ثم بفضل علمائه الذي أمدوا شبابه بالعلم والنور على مر السنين . ولذلك وجب علينا نحن الأفراد في المجتمع المسلم نحو العلماء أن نحمي لحومهم وأعراضهم وسمعتهم من المغرضين والمتفلسفين عليهم بالكذب والافتراء حتى يصفو طريقهم وأسلوب تعليمهم لنا فتصفو حياتنا للعلم وللنور وللخير .

طبقة الفقهاء

الفقه : هو الفهم وإدراك المعنى من الشيء، وهو استنباط الحكم الشرعي من المصادر الشرعية . أو هو استخراج المعنى الذي يدرك من الشيء ومن ثم الحكم عليه، بغية إيضاح العلة السليمة منه .

والفقه منه ما يدرك بالعقل وتتضح علته ظاهرةً فتستنبط منه بعد الإحاطة بمقتضيات الشيء، ومنه ما لا تتضح علته فتكون خفيةً، ولكن المهم أنه ما من أمر إلا وله علة سواءً اتضحت منه أم لم تتضح .

وتعني هذه الكلمة الفهم، لذا فهي كلمة بعيدة المدى اللغوي، ولكن معناها الحقيقي يكاد يكون ببدء تأريخ الإسلام والذي اعتبر الفقه والتفقه في مسائله وأحكام عباداته من أولوياته وأهم ركائزه .

ولربما كانت تطلق على كل خبير بشيء فهو فقيه فيه، حتى أصبحت تطلق في ربوع الإسلام على العالِم المسلم أو القاضي الذي يدرك أمور الشريعة وأحكامها .

وقد نشأت هذه الكلمة في الوسط الإسلامي مع بداية الأخذ بالعلم الشرعي الديني، الذي يحمل في طياته تعاليم وحدود وأحكام الدين الحق وكيفية تطبيق شرائعه، فالفقيه هو العالم بحدود الشرع المستنبط لأصول الأحكام والمدرك للعلل الشرعية التي ارتكزت عليها الأحكام، مستخدماً عقله ونزاهته، مع العلم أن الدين ليس بالعقل، لأنه ليس كل أموره تتجلى للعقل، وإنما هو شرائع ربانية تقابل بالتعظيم والقداسة والإجلال نأخذها ونطبقها ونعمل بها سواءً اتضحت لنا العلل منها أم لم تتضح .

والفقهاء : هم طبقة الناس الذين يبحثون في الأمور والمسائل الشرعية فيستنبطون أحكامها الصادرة عليها من الأصول والمصادر التشريعية لديننا الحنيف .

وفقه المسائل التي ليس لها مرجع من الكتاب أو السنة يلحق بقـــرائن ودلائل مشابهة، فيقاس باعتماد العلة والتي هي الأصل في إطلاق الحكـــم على الشيء .

والفقه مجاله كل شؤون الحياة، ولا يوجد مجال أو جانب منها إلا وله في الفقه الإسلامي مباحث مستفيضة، وهذا هو المهم وهـــو أن الفقـــه الإسلامي ليس مجرد لوائح وأنظمة جامدة لا يمكنها أن تتماشى مع الزمن وتطورات المجتمع، بل على العكس من ذلك، فالفقه تشريع لكل ما مـــن شأنه مصلحة ومنفعة الإسلام والمسلمين فهو يتماشى مع تطور المجتمـــع ودون خرق لأحكامه الثابتة .

ويتقصى الفقهاء الأحكام والحدود الشريعة من المصادر التشريعية لها، وهذا هو الأساس لمنهج الفقه وأصوله، ومصادره معلومة محددة ولـــيس هناك مصادر سواها من خارج الشرع .

لذلك فمن أهم أغراض ومبادئ هذه الطبقة الاعتماد على المصـــادر التشريعية والأدلة التفصيلية والأخذ منها ومعرفة كيفية أخذ الدليل بجميع أحواله، ثم كيفية تطبيقه والعمل به وبيان العلل والأسباب من الأحكـــام قدر الاستطاعة وتوضيح المتشابه وكيفية الاستدلال والاستنباط وتفصيل المسائل ومباحثها، وطرق الأدلة عليها وإقامة وتطبيق الشرع الإســـلامي

بالشكل المطلوب كقدوات للمجتمع ومعرفة أن الدين شريعة من عند الله تعالى تقابل بالقداسة والتعظيم ثم تؤخذ كما هي بكلياتها وأحكامها وهو ليس بالرأي والتخير بين أموره وأحكامه وحدوده .

توجيهات :

وهناك أمور ينبغي أن يحيط بها الفقيه العالم وأن يعلمها ومن ثم يعمل بها ويعلّمها لكل متفقه، ومن ذلك :

١- لا فقه بلا ورع، وذلك لأن العبرة بالعمل بعد العلم .

٢- العلم التام بآيات الحدود والأحكام في القرآن الكريم والمحكم المتشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول والمطلق والمقيد والخاص والعام ...

٣- معرفة المصادر التشريعية وكيفية استنباط الأحكام منها .

٤- الإحاطة التامة بعلم الفقة وأصوله وعلم الحديث وأحواله ومعرفة أصول وفروع وقرائن ومداخل ومخارج المسائل والأحكام .

٥- معرفة الفقهاء المعتمدين من الفقهاء السابقين، فعن أيهم يؤخذ العلم وعلى أيهم يرد .

٦- إصدار الحكم من الأدلة التفصيلية مرتباً حسب أولوية المصادر المأخوذ منها الحكم، والاعتماد على الأصول قبل الفروع في الأحكام .

٧- التثبت عند إرادة إصدار أي حكم، والتحري الأكيد منه، وذلك إن لم يكن للمسألة حكم ثابت من المصادر الرئيسة للتشريع .

٨- إقامة الحدود على أنها شرائع دينية القصد منها تهذيب سلوك الإنسان في الحياة وحفظ حقوق الجميع بتطبيقها، وفي ذلك غاية إدراك المصالح

والمنافع، وليس على أنها قوانين وأنظمة وأوامر صماء كمجرد إلزاميات وعقوبات .

٩- القدرة على البحث والتقصي، والتثبت والتروي وعدم العجلة والتأثر من قِبل الغير، ولا سيما حال الحكم والقضاء بين الناس .

١٠- المناقشة العلمية في حالات الخلاف الفقهي بالاعتماد على الأدلة الشرعية، وإعلام السائل باختلاف أقوال الفقهاء في المسائل الخلافية حتى لا يقع الناس في عنت حال إختلاف الفتوى .

١١- تعظيم شعائر الدين وقيم الحدود والأحكام الشرعية، وبيان العلة والحكمة منها ما أمكن ذلك، كبيان منافع الحلال ومضار الحرام .

١٢- الحذر من تتبع الرخص أو التخيّر من أقوال المذاهب ولا سيما لمن وصل درجة الاجتهاد، بحجة كون الخلاف الفقهي حاصلاً، بقصد التهاون في أمور الشرع أو تعدي حدوده وأحكامه وخرقها بمسوغات .

١٣- وجوب إعلام الجميع أنه وجب على من وصل درجة الاجتهاد من الفقهاء عدم التقليد لغيره بل عليه الاجتهاد بما ترجَّح عنده بالدليل، وعند ذلك لا يَستغرِب الكثير من الناس عندما يسمعون أحد الفقهاء يفتي بأمر خالف فيه بقية الفقهاء لأنه أفتى باجتهاده وبما ترجح عنده من الأدلة .

١٤- الرجوع والعدول عن الحكم السابق الذي صدر، إن تبين أن الصحة في غير ذلك، إحقاقاً للحق .

وكما تتحمل هذه الطبقة عبئاً كبيراً وقدراً ليس بالسهل في حياة الفرد والمجتمع، وذلك لأنها هي التي تدل الجميع على كيفية إقامة الشرع

بتطبيق حدوده وأحكامه ومن ثم الأهداف النبيلة من ذلك . ولا سيما وأنها لربما واجهت تيارات لبعض التهم والأباطيل والشبه المثارة حول الشرع الرباني في محاولة زعزعت بعض ضعاف النفوس، فيكون دورها هنا رائداً في كشف وإبطال تلك الشبه والادعاءات والافتراءات والأكاذيب .

سلبيات وإيجابيات :

يعد الورع أساس الفقه وفقه بلا ورع كشجرة بلا ثمر وماء مالح يزيد ظمأً كما يقال، ولذلك فلا بد وأن يكون الورع رأسمال الفقهاء، والذي وللأسف نراه شحيحاً جداً في هذا الزمن، لذا فمن جملة أخطائهم :

١- أخذ بعضهم عن المذاهب الأربعة فقط معتقداً أن الفقه منحصر فيهم دون غيرهم وأن أي قول لسواهم لا يعتمد عليه . وقد يصل الأمر للتمسك بقول المذهب والتعصب له وإن كان قولاً ضعيفاً .

٢- التقليد والمتابعة، مع القدرة التامة على الاجتهاد وعلى الاستنباط والاستدلال .

٣- تقديم الدليل الظني على القطعي والأخذ به دون سبب يستدعي ذلك لميل حصل في النفس أو تعصب لمذهب أو تقليد لشيخ أو ...

٤- الأخذ بظواهر النصوص دون مضامينها ومدلولاتها في المسائل أو تحويرها وتأويلها وَلَيِّ أعناقها ومن ثم تفسيرها حسب الهوى والميل النفسي أو الرأي الشخصي المستحسن أو بدعوى تماشي الدين مع الوضع الحالي والواقع المعاصر . وللمسألة ضوابط شرعية وقواعد أصولية معلومة .

٥- العدول من الحكم الأظهر الأقوى إلى الأضعف منه ظهوراً وهو ما يسمى بـ (القياس المرجوح) بحجة اختلاف الحكم لاختلاف المذاهب، ولا سيما بعد التحقق من الخطأ الحاصل وإقامة الحجة، وبالأخص متى غلب على المتفقه ذلك، كما لو كان منهجاً مطرداً .

٦- نشوب خلاف فقهي بين البعض والذي قد ينشأ عنه الخروج من دائرة النقاش العلمي إلى الجدل العقيم، وربما يتطور الخلاف إلى كونه عداء شخصي أو مذهبي فتكون تخطئة الغير .

٧- إصدار بعض الأحكام المعاصرة بخلاف حكمها الأصلي بحجج واهية وبتأويل خاطئ بدعوى أنها من سماحة الإسلام، أو أن الغرض والعلة منها قد اختلف فاختلف الحكم تبعاً لذلك أو تغييراً للزمان والحال . وهذه المسألة لها ضوابط شرعية ثابتة .

٨- قلة الورع عند بعض الفقهاء مما قد يجعله يقبل الشفاعة في الأحكام أو يأخذ الرشوة أو يحكم بالجور أو يتأثر بالمؤثرات أو المغريات، وبالتالي يتعامل مع الفقه وكأنه يتعامل مع أنظمة ولوائح من وضع البشر فيتأوله ويتجاوز أحكامه بكل جراءة وتحايل كما يريد وكما شاء ويهمل كونه شريعة ربانية يجب نحوها التعظيم والقداسة .

٩- مكانة القضاة المحفوظة ربما هيأت لضعاف النفوس منهم استغلالها في اشباع رغباته الدنيوية على حساب دينه وفقهه والعياذ بالله وما ذلك إلا لما نسي الكثير من الفقهاء قوله ﷺ محذراً إياهم : (**القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة، قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة،**

وقاض عرف الحق فجار متعمداً فهو في النار، وقاض قضى بغير علم فهو في النار)[1] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وبالجملة ففوائد هذه الطبقة تعد فوائد كثيرة وجمة، فليس من مجتمع مسلم إلا وله علماء فقهاء، ولكن وفي نفس الوقت فإن خطأها فادح وقد يجر الكثير من الويلات والتبعات الخطيرة على طبقة العامة الذين يقلدون ويسندون كل ما يصدر عن طبقة الفقهاء .

لذا فينبغي أن يكون فقهاء كل مجتمع ورعين متورعين إضافة إلى كونهم علماء معلمين صالحين ومصلحين، فهم رجالات الدين وقادة المجتمعات الذي يؤخذ عنهم دين الله عز وجل وشريعته ليعبد كما شرع وأراد سبحانه وتعالى .

وصدق عمر بن الخطاب القائل : (أخوف ما أخاف عليكم هفوة عالم)، لأن هفوته تجر ويلات .

وكفاك أن تعرف أن من فضل هذه الطبقة، ما قيل من أن : (كل فقيه عالم وليس كل عالم فقيهاً) .

---

[1] رواه الترمذي والحاكم والطبراني في المعجمين الأوسط والكبير والبيهقي في شعب الإيمان .

طبقة الأئمة والدعاة

الإمامة : هي القيام بمسؤولية الرعية، لمن نُصب قائد على قوم، فيتكفل بأعبائهم ومسؤولياتهم ورعاية شؤونهم .

أما الدعوة : فهي مقولة موجهة لقوم تدعو لإقامة أمر معين أو الامتناع عنه والتحذير منه، وهي أيضاً التبليغ .

والإمامة والدعوة لها أثر كبير في حياة الفرد والمجتمع وكيفية خط سيره وثقافته ونظامه وانسجام ذلك بينهم .

فالإمام مسؤول عن رعيته من الناحية السياسة والداعية مسؤول عمن حوله فكرياً، وكلاهما له صوت مسموع في المجتمع وله موجة لها أثر بالغ وكبير عليه .

ويرجع تاريخ كلمة إمام منذ أن حاول الإنسان تكوين مجتمع له على وجه الأرض، فكان ولا بد وفي كل مجتمع وجود قائد وإمام مسؤول عنهم يتحمل كافة المسؤوليات ويدير كل الشؤون الخاصة بهم .

أما كلمة داعية فبدأت عندما أحست بعض المجتمعات أنها بحاجة لوجود صوت له فعّالية في حياة الفرد والمجتمع، وليبين ويظهر كل ما وافق معتقدات وأفكار المجتمع أو خالفه، أو حتى حاول ذلك المجتمع رفض استبداد الإمام وسيطرته الجبرية عليهم، أو كان غرض الإمام إقناع مجتمعه بما أراد من أفكار ومعتقدات ومبادئ، فصار في كل مجتمع إمام لهم، ولهذا الإمام، دعاة يتكلمون بصوته تأييداً، أو معارضةً له .

وقد نشأت هاتان الكلمتان مع بعضهما، وذلك لأن كل مجتمع لا بد وأن يكون له إمام ودعاة، وكان دور الإمام هو حفظ نظام المجتمع وتوفير كل حاجاته ورعاية كل شؤونه، ولكن وللأسف تحول معنى هذه الكلمة ومغزاها لاحقاً وصارت تعني التسلط والاستبداد والقهر واستغلال السلطة لثروات المجتمع، وذلك في الكثير من المجتمعات .

وكذلك الدعوة فقد كان دورها توعية المجتمع من كل ما يهدد أمنه وسلامة أفراده من أفكار ومعتقدات ومبادئ دخيلة من شأنها نشر الفوضى في أرجائه، وقد أصبحت لاحقاً تعني وتدل ربما على المذهبية والحزبية الناطقة بكل لسان بغية الوصول إلى أغراض شخصية وأطماع دنيوية تخدم مصالح معينة لمحركيها فقط، وإن كان وراء ذلك ضرر المجتمع أو الغير .

والأمام : هو الذي يسود قومه ويكون مسؤولاً عنهم فيتحمل ويتكفل أعباء الرعية، وتكون إمامته تلك تكليفاً له ومسؤولية عليه وليس تشريفاً ومقاماً محموداً له .

أما الداعية : فهو الذي جند نفسه ليبلغ الدعوة إلى كل فرد في المجتمع، وقد يكون كل شخص داعية، ولكن المقصود هنا هو من تحققت فيه كل مقومات ومتطلبات الدعوة والتوجيه والإرشاد لمجتمعه بأسره .

ولربما الفرق بين الإمام والداعية، هو أن سيطرة الإمام على أتباعه تكون سيطرة سياسيةً مفروضة عليهم غالباً، وحتى وإن لم يكن هناك اقتناع من أتباعه بأفعاله وأقواله، وعليه فتكون نصرته وتأييده ولو على

غير الرضى التام له والولاء الخالص منهم نحوه . في حين أن الداعية تكون سيطرته على أتباعه سيطرة فكريةً بإقتناع تام منهم ورضى لمقولاته وأفكاره وبُعد التأثر بها، فيكون تأييده على القبول والرضى التام والتأييد المطلق له .

ومن المعلوم بالأثر أن المبدأ الرئيس والغرض الأول لأي إمام على قوم هو تحقيق الأمن واستتبابه في أرجاء وطنه، ثم رعاية شؤون الجميع في المجتمع كإقامة العدل ومنع الجور، ثم توفير متطلبات وحاجيات ذاك المجتمع . بحيث يسعى كل إمام لذلك .

ولكن الحاصل اليوم في الكثير من المجتمعات هو العكس من ذلك تماماً أو نسبياً والذي أصبح الهدف الأول للإمام هو تحقيق ما أراد وبأي وسيلة كانت، حتى ولو اضطر بعضهم إلى مبدأ الجبر واستعمال القوة والإلزام على رعيته وفرض السلطة . فيكون منهجه سياسياً إلزامياً ممثلاً ذلك في قوانين وأنظمة تبين وتوضح للمجتمع كل حدوده وحقوقه وواجباته التي له والتي عليه .

أما الداعية فمن مبادئه دراسة الموجات الفكرية والعقائد والمبادئ المنتشرة في المجتمع أو أحد أوساطه ومن ثم النظر الفاحص في تلك الموجة وتوضيح جوانبها ثم إظهار ذلك للمجتمع، ومنهجه فكرياً وليس له إلا الدعوة بكل أسلوب يحاول فيه الوصول إلى عقول ونفوس أفراد مجتمعه وليس له إي قوة إلزامية على غيره من الناس ، سوى سبيل النصح والتوجيه والإرشاد .

والمفروض أن يكون الداعية وجهاً مشرقاً للمجتمع فلا يغتر هو بأفكار وعقائد ملوثة ثم يحاول أن ينشرها في مجتمعه، فتكون الطامة طامتين فيستطير الشر ويتطاول .

توجيهات للأئمة :

وهناك أمور يجب على الإمام أن يكون على علم تام بها وعلى معرفة موسعة بها، منها :

١- الإمام هو المسؤول الأول أمام الله تعالى وذلك لأن كل راعي مسؤول عن رعيته، والإمامة تكليف منوط به يتحمّل أعبائها، وهي ليست تشريفاً لذاته أو لعنصره أو لوضعه أو لأي من تلك الأمور .

٢- على الإمام تحكيم شرع الله تعالى والإنصاف ونشر العدل والمساواة وإحقاق الحق وإبطال الباطل وعدم الغش والغلول لرعيته .

٣- محاولة كسب حب الشعب وتأييده بالقيادية الحكيمة وحسن الرعاية والتدبير لشؤونهم وحاجياتهم ومصالحهم وبالحزم والصرامة والأخذ بكلتي حالتي الشدة واللين، وليس باستخدام السلطته والقوة في السيطرة وفرض التبعية والهيمنة والاقناع .

٤- الحزم في الأمور من أولويات الإمامة، في حين أن الاستبداد من أسباب ضياعها والموصلة إلى التسيب لاحقاً . ولذا يجب التعامل مع أفراد المجتمع بكل الطرق وباستخدام جميع الأساليب، فعقول الناس وأفكارهم ليست سواء .

٥- من واجبات الإمام قمع أهل الفتن والباطل والفساد والمنكر والأهواء وردع كل من يحاول الإخلال بالنظام أو اختراق الشرع القويم بتعد حدوده وأحكامه .

٦- صوغ القوانين والأنظمة التي تحقق مصلحة الجميع واقعياً، والمساواة والانضباط بينهم، في حدود الشرع القويم . وكل نظام فيه تعدٍ على حدود الشرع أو مخالفة لأي من أحكامه هو نظام باطل ليس في مصلحة المجتمع ولا تتحقق به إي نتائج إيجابية .

٧- إرغام المجتمع بالقوة وفرض السيطرة لإقامة شرع الله تعالى وحدوده وأحكامه بينهم ولا سيما إذا انتشر الشر وجهر به واستفحل أمره .

توجيهات للدعاة :

١- منهج الدعوة الأساس هو التأثير في المدعويين بالتوجيه والإرشاد وتوعية الفرد قدر المستطاع وإيضاح الخير من الشر وقول الحق وتأييده وإنكار الباطل ومعارضته وكشف الزيف والضلال والفساد ومكامن الخطر والضرر والتصدي له .

٢- مواجهة التيارات الفكرية والمبادئ والمعتقدات والشبه والأفكار والدعاوى الفاسدة الباطلة التي داهمت المجتمع، ثم تجلية خطرها الجسيم للمجتمع بإظهار غرضها الهدام وبتقصي جميع جوانبها لدحضها وليظهر مخططها الحقيقي ثم التحذير منه، ومن ثم بعد ذلك يأتي دور مشاركة المجتمع في حل مشكلاته ومعضلاته ومعالجة ذلك كله .

٣- استعمال كل أساليب الاقناع والتأثير السليمة للوصول إلى جميع العقول والنفسيات والأمزجة والطبائع لتتم مسألة إقناع الجميع .

٤- تأصيل الثقافة الدينية وتقوية الجوانب الدعوية في المجتمع بترشيد الأفراد لما يحقق مصالحهم ويفيدهم في مستقبلهم .

٥- التصدي لكل خارج عن منهج الشرع والدين معتقداً الكمال فيه أو معتقداً أن النقص حاصل في جانب الدين والشرع القويم .

٦- المصداقية في الدعوة، فالصدق مع الله تعالى ثم مع النفس يولّد قوة نفسية ونصرة معنوية مهمة جداً للداعية وفي نفس الوقت تُوجد تأثراً بالغاً في نفسية المدعو .

٧- الإسهام في فرز كل المشكلات والمسائل المدلهمات الحاصلة في المجتمع لتخليصه من كل عبأ مرهق لأي من نواحيه ومجالاته ومهامه .

سلبيات وإيجابيات الأئمة :

طبقة الأئمة يعد دورها ذا طابع سياسي وسيطرة وقوة على المجتمع، وعليه فمن أهم أخطائهم :

١- الأصل في الإمامة هو الاهتمام برعاية شؤون الرعية وليس استغلال السلطة بنهب الثروات والإستبداد من طبقة الحاكمية .

٢- إيثار الإمام نفسه وذويه على بقية أفراد المجتمع، والضغط على المجتمع بما لا يعود عليه بفائدة، وذلك للوصول إلى فائدة تعود على الإمام وسياسته هو وذويه فقط دون بقية الأفراد .

٣- تطبيق النظام على العامة دون الخاصة في الكثير من المجتمعات إن لم يكن في كلها .

٤- استخدام الشدة واللين في غير موضعهما .

٥- استخدام أساليب الإقناع الإرغامي والإلزام بقوة السلطة، وهذا الأمر لا يكون إلا ممن فَقَد الحنكة القيادية وحسن التدبير وبالتالي خسر حب الشعب وتأييده الحقيقي .

٦- فصل الدين عن السياسة، وتخطي منهج الشرع كثيراً، ووضع بعض القوانين خارج نطاق وحدود الشرع، وإبدال بعض الأحكام الشرعية بقوانين وأنظمة وضعية تخالف الشرع القويم .

٧- الاهتمام البالغ بالجانب السياسي "المصالح الدنيوية" وتطبيقه في المجتمع وعدم تجاوزه، في حين يكون التهاون بالجانب الشرعي وإهمال إقامة حدوده وأحكامه، أو على أقل القليل تقديم جانب تلك المصالح المرجوة وتأخير جانب الدين أو إقصاءه .

سلبيات وإيجابيات الدعاة :

١- إهمال الجانب النفسي في الإقناع والتوجيه أو إهمال الجانب الديني في ذلك، وكلا الأمرين يحتاج للآخر في مجال الدعوة .

٢- التساهل مع أصحاب الأقلام المأجورة والتي تلبس الحقائق أو تهدف إلى أغراض معينة لا تعود بالمصلحة على المجتمع بشكل صحيح .

٣- التركيز على أحد جنبات الحياة وإهمال جوانب أخرى لا تقل أهمية عن غيرها .

٤- التساهل بأمور بسيطة أضحت مع الوقت أزمات كبرى تواجه المجتمع وتفرض عليه تبعات وأخلاق غير سليمة .

٥- الحذر من النفاق البالغ الذي قد يمتهنه أو يستخدمه البعض لأي قصد أو غرض كان، وما ينتج عنه من تشويش للمفاهيم والقيم، وبالتالي فهو لا يجدي نفعاً بل يضر ويهدم .

٦- بعض الدعاة يهتم بدعوة الناس ويهمل أو قد لا يهتم بدعوة المقربين من أهل بيته وذويه وأقاربه، فأيهما أحق بالنصح والتوجيه والإرشاد وأولى يا ترى !

٧- غياب القدوة الصالحة وندرة وجودها، والتي وجب تحققها في شخصية الداعية، وكما قيل قديماً (لسان الحال "القدوة" أقوى من لسان المقال "التوجية والإرشاد") ولذلك فالواجب على الداعية إصلاح نفسه وأهل بيته وتطبيق ذلك فعلياً في حياته قبل توجيه الناس وإرشادهم .

٨- قصر نظر بعض الدعاة وعدم محاولتهم الانتفاع من طرق وأساليب وخبرات وتجارب الآخرين، ولا سيما الأساليب والتجارب التي اثبتت نجاحها على واقع الساحة الدعوية .

٩- عدم مراعاة اختلاف أوضاع المجتمعات المسلمة، والنظر إليها على أنها مجتمع واحد في كل الأمور، وعليه فلا يراعى الفرق بين واقع كل مجتمع ومشاكله ومواضيعه وما يشغل ساحته والواقع المعاصر فيه . وهذا خطأ كبير، إذ لكل مجتمع وضع وواقع خاص به ومشاكل ومهام ينظر فيها بحسب المصلحة في ذلك المجتمع .

وتعتبر هاتين الطبقتين من أهم طبقات المجتمع، فطبقة الأئمة سياسية المنطلق، وطبقة الدعاة فكرية المنطلق .

ولكل واحدة منهما ولا شك جانب تعنى به، ومجال ومهام يجب القيام بها في مجتمعاتهم على أتم وجه وأحسنه .

ولكن الوجه الحسن لطبقة الأئمة هو استعمال الرفق في الأمور واتخاذهم الأساليب الحسنة في الإقناع والتعامل مع مجتمعاتهم وتطبيق أحكام وحدود الشرع وتنظيم القوانين التي لا تتعارض مع الدين في شيء بل ولتأييد مساعيه وأهدافه . وكذلك من أعمالهم الحسنة تشجيع الدعاة وأهل الحق والخير وإعطائهم المجال الذي يساعدهم على إظهار الحق ومنع الباطل، حتى يكون المجتمع منظماً وغير همجي، ولا سيما وأن الناس ألفت أخذ الحق عن الأرق قلوباً والأرأف بهم .

كما أن الوجه الحسن لطبقة الدعاة الاهتمام بمهام ومشاكل المجتمع ومساعدة أولي الأمر والأئمة في توطيد الأمن والحق والخير ودعمهم فكرياً لإنجاز كل ما من شأنه مصلحة المجتمع .

وكذا توعية وإرشاد وتوجيه كل فرد في المجتمع من أهداف وأغراض كل دعوة فيه، والتنبيه والتحذير للخطر المقنّع والذي لا يعيه ويفطن له كل عقل، وكذا الإخلاص والتفاني وصحة المقصد وهو الوصول إلى أمن وسلامة ورقي المجتمع .

وإذا ما تكاتفت هاتان الطبقتان سياسياً وفكرياً فإن المجتمع سينعم بقادة حكماء ودعاة علماء وشعب متقدم متفاهم عظماء .

وإذا ما كان العكس فالويلات والانقسامات المتناحرة بين المجتمع والعصبيات والحزبيات والمذهبيات التي تنهش جسد المجتمع من كل صوب وناحية كلٌ يريد الخلاص أو السيطرة .

فالأئمة عندها يرغمون المجتمع والشعوب لمصالحهم وأهدافهم، والدعاة يلوحون بأفكارهم ومبادئهم، فتنقسم الشعوب وتتردى في غيابت الضياع، وعندها يصبح المجتمع مفككاً تشوبه الفوضى العارمة ...

المنهج القويم :

من المعلوم لدى الجميع ودون شك في ذلك أن هذه الطبقات هي أهم طبقات أي مجتمع مسلم، والذي لها الأثر الأكبر المباشر وغير المباشر في تكوين وصنع أفكار ومعتقدات ومبادئ وقيم وأخلاق المجتمع[1] .

وكل مجتمع مسلم لا شك وأنه يستمد قيمه وقيمة مبادئه ومعتقداته من منهج الدين الحنيف وشرائعه السمحة، ولكن أخذاً ممن ...

لا شك أن عامة الناس والشعوب هم تبع في أي مجتمع، يأخذون مناهج دينهم وشريعته من أولئك العلماء والفقهاء والمفكرين والدعاة والتربويين، فأضحوا بذلك قادة ورواد العلم والفكر والحكمة .

ولذلك فمن أولى الخطوات الرئيسة والواجبة على أي مجتمع مسلم تجاه بعضه البعض هي تحقق صحة مبادئ المفكرين وصحة عقيدة العلماء وصحة منهج التربويين وصحة وسلامة معتقد وأفكار الحكماء والفقهاء

[1] إظهار جوهرها الحقيقي وطريقة التعامل بها .

وأخيراً صدق الدعاة في دعوتهم مع حرص ولاة الأمور على شعوبهم وأبناء مجتمعهم .

وبهذا الشكل تصبح صورة المجتمع صورة مشرقة ومشرفة، وما من مجتمع ابتلي بفساد إحدى هذه الطبقات أو بعضها ولا سيما في الإعداد والتوجيه مسبقاً إلا عمته وسادته الفوضى وتكبد الخسائر الجمة والتي في طليعتها ثروته وقوته ألا وهم "الشباب" أبناء ذلك المجتمع ...

وعليه فمما دعى إليه المنهج القويم المعتدل ومن أولويات القيام به التمسك بشريعة الإسلام وبحدودها وأحكامها وفي نفس الوقت البعد عن كل ما يؤثر على دين المسلم وعقيدته وخط سيره الصحيح .

وعند تلك النقطة ألا وهي التمسك الأكيد بحدود وأحكام الشريعة الإسلامية تتحق بالفعل سلامة الفرد والمجتمع أجمع ويأمن الناس عندها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم وثرواتهم "الفكرية" وثقافتهم الأصيلة بأداء الحقوق والواجبات والتخلق بالأخلاق الرفيعة النبيلة، ويبلغ الجميع ويصلوا إلى حيث المجتمع المثالي النموذجي كالمجتمع النبوي .

ولكن هيهات هيهات أن يبلغ الناس اليوم ذلك الهدف وأن يحققوا الوصول لذلك المجتمع الذي أصبح بعيداً كثيراً عن المنال بما اعتقدوا وبما وبما فكروا وبما اقترفوا وبما عملوا وبما استبدلوا . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الباب الثاني : الفكر

الفصل الأول : الدين والعلم

الفصل الثاني : العقل والقيم

الفصل الأول : الدين والعلم

١- علم الطبيعة

٢- علم ما وراء الطبيعة

٣- علم المنطق

٤- علم النفس

٥- علم الأخلاق

٦- علم الاجتماع

٧- الدين والعلم

سأتكلم في هذا الفصل عن بعض العلوم التي كان لها تـــأثيراً بالغـــاً وتخوضاً في منظور بعض تلك الطبقات قديماً وحديثاً، ولربما أثـــرت في عقيدتها وأفكارها ومبادئها ونظرتها للحياة، وتفسيرها للظواهر الكونيـــة ولوجود الإنسان على وجه الأرض وعلاقته بها، وذلـــك مـــن الناحيـــة الفكرية البحتة المعتمدة على العقل والفكر البحت المجرد من منهج الشرع ومنظوره تماماً

علم الطبيعة :

عنت فلسفة الطبيعة قديماً وعلمها، بدراسة ظواهر الكون من منظور العقل البشري ومدركاته وحواسه، إذن علم الطبيعة هو من علوم العقل .

وكانت النقطة الرئيسة في حياة الباحث في هذا العلم محاولة اكتشاف غوامض الكون ودراسة أسراره للوصول إلى حقائقه والمقاصد من وجود الأشياء فيه وعلاقتها ببعضها وهدفها من الحياة، ولكن كان كل ذلك بأسلوب العقل ومدركاته وفكره ومدى فهمه وتفسيره الظواهر .

وحاول الإنسان القديم كشف نظام الكون والهدف منه ومن الحياة ولما أوجدت والغرض من ذلك، فكان هذا المجال مجالاً للتخوض بالأفكار والآراء وحسب المفاهيم والإدراك والاستنتاج بين علماء الطبيعة كلٌ منهم محاولاً معرفة سر الكون ووجوده والنظام الذي يسيره ويسير عليه .

ولربما اكتشف بعضهم وحدة العالم والمفاهيم والمبادئ الموجودة في أعماق المخلوقات والتي تنطق وتلهج بوحدة الصانع الموجد لها .

وحاول بعض العلماء والفلاسفة والمفكرين اختراق حاجز الحواس والمشاهد متقولاً أنها ظواهر زائفة فقط وحاول الوصول إلى الحقائق وأسرار الكون بالعقل المحض والتفكير السليم والتجرد من كل المؤثرات الطارئة على العقل كالمشاهد والمحسوس .

في حين أن الكثير من أولئك العلماء والفلاسفة والمفكرين حاول إيجاد الحقائق والأسرار بالعقل سائراً بهذا الاتجاه متجاهلاً دور الشرائع والعقائد والدين، ودون محاولة معرفة ذلك بالاعتماد على الدين وما جاء

به، وإلا لوصل إلى كل ما أراد وبأبسط مما فعل وأجهد به نفسه . ولما اقتنع الإنسان أنه ما وصل إلى شيء طيلة عمره متبعاً لذلك الاتجاه، علم أن للدين وللشرع في حياته كل الدور الفعّال، وأيقن كل اليقين وعلم أنه لابد وأن الهدف الأسمى من وجوده هو العبادة لخالق الكون سبحانه .

علم ما وراء الطبيعة :

مجال بحث هذا العلم هو ما وراء الطبيعة المرئية المحسوسة، أو المحرك الأول لها وموجدها ومدبر نظامها ومسير أفلاكها وخالق من فيها من الكائنات ألا وهو (الله سبحانه وتعالى) .

وكانت نظرة هذا العلم أولاً فيمن أوجد الكون بما فيه ثم في ماهيته وكيفيته وغرضه من ذلك، وكانت تلك النظرة نظرة فلسفية بحتة لا تعتمد على دين أو شرع تنظر من خلاله وتفسر من منظوره الظواهر، لذلك فقد كانت نظرة عشوائية لم تقرر أن الله تعالى هو الخالق الحق للكون .

ولذلك فقد أخذ أصحاب ذلك العلم وتلك الفكرة والنظرة يقررون النظريات على أساس أن للكون قوتين قوة أوجدته من العدم وقوة تحركه وتدبره، وأن تلك القوى أزليه ليس لها بداية أو نهاية أو حد وأن كل ما في الكون خاضع لتلك القوة وتحت إرادتها .

وهي تقول أيضاً إن الكون قديم أزلي بقدم ذلك الخالق، وإن الخالق لم يوجده بل أنه أفاض عليه بتدبيره وبقدرته، وتارة تقول إن الكون مخلوق مدبر ممن ينتفع بذلك ويتضرر .

وكل ذلك محاولةً منهم للوصول إلى الخالق العظيم الموجد لهذا الكون بأسلوب ومدركات العقل البشري الضعيف، ومن هنا كان الخطأ .

علم المنطق :

علم المنطق هو علم حدود العقل الصحيح والأساليب السليمة التي تتأتى لكل ذي لب وعقل صحيح وفكر سليم، وتفسير الظواهر بعقلانية تامة بقصد الوصول إلى الحقائق والأغراض منها .

وهذا العلم يقيس كل فكرة ويبحث في مدى صحتها وخطأها وكذا مدى نفعها وضررها . ويعتبر علم المنطق القائد لطريقة التفكير السليم، وطريقة الفكر والقول والفعل السليم من كل شيء في حدود العقل . وقد يكون أساس هذا العلم هو النقد التام للظواهر والتفكير الهادف المجدي والتفسير الواضح لها، وإدراك الحكمة منها .

إذن فالمنطق هو معرفة حدود العقلانية تجاه الأشياء وموقف الإنسان منها، بعد النقد التام لها والدراسة والتفسير ومن ثم الاستنتاج الصحيح السليم منها، ومدى قبول العقل لذلك الشيء أو رفضه .

والاستنتاج : هو انبثاق الفكرة في العقل وإنتاجها منه، وذلك بعد المقارنة بين الأمور والتمييز والتفريق بينها، ومن ثم قبول شيء لأنه منطقي أكثر، ورفض شيء لأنه أقل منطقية . وللاستنتاج (٣) قواعد من حيث قبوله ورده :

١- قاعدة الإثبات والوجود : وهي قاعدة إثبات الموجودات المشاهدة والتي لها في العقل المنطقي حدود، فكل شيء معقول موجود لأنه خطر

على العقل وتواجد في حدوده ووقوعه في حدود العقلانيـــة، إذن فهـــو استنتاج صحيح ومقبول .

٢- قاعدة النفي والعدم : وهي قاعدة نفي كل أمر ليس بمعقول وليس له إمكانية أصلاً، وعليه فكل معدوم ليس له في العقل وجود أو خاطر أو لعدم وقوعه في حدود العقلانية، وعليه فهو استنتاج خاطئ ومرفوض .

وبمعنى آخر :

لا نستطيع القول بأن الشيء غير موجود في العقل إلا العدم لأن كل أمر علمه منطق العقل وخطر فيه فهو موجود، والغير موجود ليس للعقل أن يعلمه أصلاً ولا يستطيع العقل أن يصل إليه لأنه عدم، فكل معدوم هو الذي لا يخطر على العقل لعدمه، ولو وجد في منطق العقـــل الصـــحيح وخطر عليه لأصبح من الموجودات المعقولة، ولو وجد في العقل خـــارج حدود العقلانية فهو موجود وليس بمعقول .

٣- قاعدة الترجيح : وهي الأخذ بالشيء أو رفضه، اعتمـــاداً علـــى مدى صحته وخطأه، مع اعتبار المبادئ والأصول ومزجها بالواقع .

علم النفس :

نشأ هذا العلم بعد النظر إلى علم الطبيعة ومـــا ورائهـــا، وحـــاول الإنسان أن يكتشف نفسه بعدما رأى العجب والإبداع في جنبات الكون وعجز عن إدراك خالقه، فأخذ يفكر في مكنون نفسه وماهيتها ودورهـــا في الحياة وكيفية تركيبها وغرائزها وحيثياتها و...

وفي البداية علم الإنسان أن له عقلاً يدرك به الأشياء، وأنه بحاجة إلى التعلم، وأنه قادر على إعطاء أفكار وكذا على تفسير كثير من الظـــواهر الكونية، إذا أحسن استعمال العقل ومنطقه الصحيح وسمع صوت نفســـه الصائب (الفطرة) دون التأثر بالشهوات والشبهات المثارة .

وبدأ هذا العلم طريقه تجاه البحث عن النفس وسرها وكل ما يتعلق بها، وعلاقتها بالأشياء حولها، منذ القدم اتجاهاً فكرياً يجده كل إنســـان عاقل متفكر في هذا الكون . ومنذ القدم بدأ الإنسان يفكر في كل مـــا حوله وعجز عن تفسير الكثير من ذلك، فما الحياة وما الموت وما منشـــأ الإنسان ومن أين والى أين ! وكثير من التساؤلات التي عجز أن يجيـــب عنها أو أن يجد في نفسه تفسيراً شافياً لها .

ومع مرور السنين أصبح هذا العلم نهجاً فلسفياً يدرس كل نـــواحي النفس البشرية وكل أعضائها ودوافعها وشعورها و... حتى أصبح يحاول ويسعى إلى تقويم النفس كما يريد ولما يريد، فصار يراعي كل الجوانـــب التي تؤثر في الإنسان ليقوم النشأ على منهج معين ومن ثم ليحقق أهـــدافاً محددة، في بعض المجتمعات . وبعد ذلك صار هذا العلم مركـــزاً علـــى دراسة النواحي النفسية دراسةً تامة متقصياً كل ما يتعلق بها .

علم "السلوك" الأخلاق :

يتناول علم الأخلاق أفكار وشعور وسلوك الإنسان وأساليبه وفكره تجاه غيره من الناس، وكيفية تعامله مع الأمور المحيطة به .

وهذا العلم أصلاً يدرس الدوافع التي تدفع الإنسان أن يتعامل مع غيره بالشكل الذي يراه، وكذا القيم التي يبني الإنسان عليها مبادئه وأساليبه وتعامله، ومدى الصحة والخطأ وطرق العلاج الخاطئ منها .

ولا شك أن الناس متفقون في أشياء ومختلفون في أخرى، متفقون في الأصول المستمدة من الفطرة السوية والعقل السليم والحس الصافي، ومختلفون في الفروع حسب التربية والبيئات والأفكار والعقائد والمؤثرات الاجتماعية والثقافية وغيرها من دواعي الاختلاف كالأشياء النفسية الشخصية والمكتسبة و ...

والعقلاء يقولون إن الإنسان يتعامل مع محيطه بحسب إدراكه وفهمه لما حوله وبحسب طريقة تفكيره وإصدار أحكامه عليها، فالإنسان يتعامل مع الأمور؛ والمحيط من حوله بالطريقة التي وعاها واعتمد عليها اقتناعاً منه، ولهذا كله نشأ علم الأخلاق والتقويم النفسي والخلقي، ودراسة الطرق والأساليب والمقاييس الصحيحة للأخلاق والأفكار والمبادئ .

علم الاجتماع :

هذا العلم من أقدم العلوم الفكرية تواجداً، وكانت بدايته مجرد نهج فكري قومي و لم يظهر بشكل علمي مقنن منفرد إلا بعد سنين طويلة .

وصار بعد ذلك علماً متقناً، يدرس المجتمعات ودور الفرد فيها، وذلك باعتباره هو العنصر الفعّال في هذه الحياة . وينظر في علاقات المجتمع وأفراده مع بعضهم البعض ودور الفرد فيها وأنه محور الحياة الإنسانية، وعضو التغيرات فيها .

وعلم الاجتماع له أهمية كبرى في دراسة المجتمعات والفروق بينهـــا وطبيعة كل مجتمع وعاداته وتقاليده ومبادئه وأفكاره ومعتقداته، وكـــذا أنظمته وعلاقاته وقوانينه وسياسته ...

ومن أولويات هذا العلم أنه ينظر لكل مجتمع على أنه كتلة موحـــدة في هذه الحياة مستقلة عن غيره، له نظام خاص به وطرق ومبادئ و ...

ومعلوم أن للإنسان حقوق خاصة به كشخصية منفردة وأيضاً لـــه حقوق اجتماعية مع غيره مكتسبة ككونه فرد في مجتمع . وغير هذا وذاك هو في الحقيقة منهج علم الاجتماع ومجال بحثه ...

علم القانون :

أوجدت هذا العلم مصلحة المجتمع ومنفعته عموماً، ولذلك فكل مجتمع يقنن القوانين والأنظمة ويصوغ المواد واللوائح والقرارات والنصوص التي تخدم مصالحه كمجتمع متكامل، ولا عبرة هنا في جميع الأحوال لجانب الدين، وعليه فأسس هذا العلم ومنظوره العام ومنطلقه الرئيسي قائم في معظم الأحوال إن لم يكن كلها على النظرة العَلمانية التي لا تقر الدين في عالم السياسة بل ولا تهتم به في حياة الإنسان ككل .

الدين والعلم :

يجب أن نعلم علم اليقين، أن الدين أبداً لم يكن عقبة في طريق العلم كما يدعي المغرضون، بل أن دين الإسلام هو دين العلم والذي رفع شأنه وقدره عالياً . وإذا دققنا النظر في العلوم السالفة الذكر لوجدناها كلهـــا

ترتكز على التفكير البشري وتبحث وتدور حول الكون ونظامه وخلق الإنسان فيه ودوره و ...

ولكن وبمجيء الإسلام وشرائعه ودروه الفعال والذي لم يغفل أي جانب من جوانب الحياة، بمجيئه أغنى عن حاجة الفكر والبحث عن قيم الحياة الأصيلة، وأغنى الإنسان عن بحثه الدؤوب عن حقيقة وجوده وماهية دوره في هذه الحياة . وكان بمجيء الإسلام قد عُرف وعُلم الغرض من الحياة الدنيا وما هو مطلوب من الإنسان، ليس ذلك فحسب بل قد رسم الإسلام للإنسان في هذه الحياة كل تشريع وتنظيم وقانون وخلق ومبدأ ومعتقد وفكر يهمه كأفضل منهج للحياة إطلاقاً .

ولذلك فقد كان مبدأ تلك العلوم البحث عن الحقائق، ولكن وبما أن الإسلام قد بيّن للإنسان مراده وكفاه ذلك البحث بتشريعه الشرع ووضعه للأحكام والحدود وتوضيحه الهدف من الحياة ودور الإنسان فيها، وعليه فليس هناك داعي لأن يكلف الإنسان ويجهد نفسه بحثاً وتقصياً عن الحقائق من خلال تلك العلوم، ما دام أن الشرع والدين قد وضح الأمر وبينه من مبدئه وحتى منتهاه .

ولذلك، فقد تحول مضمون تلك العلوم حديثاً حيث صارت اليوم تبحث جاهدة عن تنظيمات ومبادئ وأفكار وقوانين توافق هواهم في الكثير من الأحيان، وفلسفات ونظم جوفاء تخدم مصالحهم غالباً، وذلك كله لأنهم لم يجدوا في الإسلام ما يوافقهم، أو مدعين النقص في الدين وشرائعه بدعوى أنه لم يشمل كل جوانب ونواحي الحياة، وحتى وإن

كان ما أرادوه وقالوه وذهبوا إليه خطأ كل الخطأ وبعيداً كل البعد عن الحق الظاهر .

وعلى ذلك فليس لتلك العلوم أو لغيرها اليوم حاجة للفكر وللبحث خارج نطاق الدين الذي شمل كل شيء وجاء بالحق كله وحواه ونهى عن الباطل ونبذه فشريعته كلها أمر أو نهى، إذن ليس لتلك العلوم اليوم في الكثير من الأحيان سوى الفكر الهدام التي يبثه البعض من المغرضين بقصد الوصول إلى حقائق مزعومة .

وكل الشرائع السماوية السابقة تتضمن تلك الحقائق إن طبقت فعلاً أحكامها وحدودها، ولكن الحاصل في أحوال السابقين غير ذلك، فقد قاموا بتحريف الشرائع والكتب الربانية إلى الباطل فدخلوا بذلك في الظلمات والمهالك، وازدادوا بعداً عن الله تعالى وعن الحقائق، فكان الحق والصدق بمجيء الرسالة المحمدية الناسخة لكل الرسالات والشرائع السابقة، الرسالة الخالدة إلى قيام الساعة ذات الشريعة السمحة .

الفصل الثاني : العقل والقيم

١- التأويل

٢- القياس

٣- الأدلة

٤- القيم :

الحرية . المساواة . العدل . النظام

التكافل الاجتماعي . الاخلاص والاتقان

١- التأويل :

كان التأويل مجالاً رحباً لمعظم تلك الطبقات، فما من موضوع وأمر إلا وكان التأويل سيد الموقف ومجال الأقاويل والنظريات لكل متكلم ومتفلسف كلٌ حسب منظوره ومنطلقه وتأثره .

فكل طبقة تنظر للأمور من زاوية توضح لها الحقائق بمنظار تعتبر متأثرة به وذلك لأن كل طبقة تدرس الأمر وتحدده وتتحقق منه وتأوله بما يناسب أفكارها وأغراضها ومنطلقها ومنظورها وذلك لأنها تتأثر به بزيادة أو نقصان، وكل طبقة تصوغ الأمر من منظورها متدرعة بقولها (إن إثبات الحقائق لا يكون إلا بتلك الطريقة ولا حقيقة إلا إذ تماشت مع منهجها وتأويلها) حسب زعمهم .

وإذ أمعنا النظر في جميع جوانب الموضوع لأي طبقة فإنه لا بد وأن نجد من تلك التأويلات ما يوافق الصواب وتأويلات توافق الأصول أي أصول تلك الطبقة وهو محل نظر وتمحيص لأنه من وجهة نظر الطبقة صحيح ولكنه قد يؤخذ به وقد يرد .

وهذا القول ينصرف على كل طبقة تعتمد في إثبات الحقائق على الفكر المحض دون اعتماد شرائع أو دين، إذ أن الشرائع مبعثها واحد فلا جدوى للتأويل أو للأقاويل، وذلك لأن الشريعة متكاملة تامة وتغني عن التأويل فلا يبقى سوى التطبيق لما جاء فيها فقط، وقد يصرف التأويل هنا عن الحق فيدخل في مجال الباطل والشبه والتناقضات . وعليه فللتأويل قسمان هما :

١- التأويل المحدود المقترن بقرينة : وهو تأويل الحقائق إلى كل ما تحتمله من جوانب كنهها فهو لا يتعدى المعنى الصحيح، وهو في حقيقته محاولة صرف الحقيقة إلى أقرب ما يشابهها وليس تلبيس الألفاظ إلى ظواهر ألفاظ مقاربة تخرج بذلك عن مضمون الحقيقة أو عن نطاقها .

٢- التأويل الغير محدود : وهو صرف الحقيقة أو اللفظ إلى كل معنى يكون مغاير وبعيداً عن حقيقة ومضمون الشيء، وليس له حد وإنما يكون حسب مراد المؤول وكيفما شاء متأثراً بوجهة نظره والغرض الذي من أجله كان التأويل، ومحاولاً في نفس الوقت إظهار أن كل معنى للحقيقة في ذلك الأمر لا يحيد عن ذلك القول والتأويل .

التأويل والعلماء :

التأويل في حد ذاته هو صرف المعنى الظاهر إلى آخر محتمل تتضمنه حقيقة الشيء، وعلماء الشرع يقولون بالتأويل لأنه ثابت بالكتاب والسنة وأثره النافع واضح ولكن إذا كان بوجه صريح وصحيح ويرتكز على قواعد ثابتة إذ لا تأويل مطلق لكل أحد أو ليس له قواعد وأصول ثابتة أو لم تعرف أهدافه والعلة منه .

وإذا كان الغرض من التأويل الوصول إلى أهداف متوقعة غير متضمنة في أصل الشيء فهو تأويل غير جائز، لأنه اعتماد شيء غير قطعي الأولى اعتبار حجيته، ودحض أمر أقوى منه فيكون من درجة أقوى إلى أضعف ودون حجة أو اعتبار .

٢- القياس :

القياس[١]، فيما جرت به العادة هو الميزان الذي تقاس به الأشياء، فهو قياس الأمور والترجيح فيما بينها لإيضاح العلة منها، وذلك كله يتم بأداة التفكير وهي العقل الذي يحكم ويقدّر .

والقياس منه الصحيح المقبول ومنه الفاسد المردود، فالصحيح ما كان ضمن أصول تحكمه وظهرت العلة منه في العقل والنفس والشرع وجوداً عاماً فطرياً، فلا قياس قاصر على رأي فردي مرتكز على منظور الشخص فقط، ولا قياس من منظور خاطئ أو أصول فاسدة أو لم تظهر العلة منه .

أركان القياس :

وللقياس الصحيح أركان وشروط إذا توفرت جاز عندها القياس باعتباره مستوفياً كافة شروطه وأركانه . **أما شروطه :**

١- العقل السليم : إذ هو أداة التفكير والترجيح وصاحب القدرة على الاستنباط والنظر الفاحص وموازنة الأمور، ومن فقد هذه الآلة فقد مُنع القياس وحجب عن النظر والترجيح والموازنة .

٢- الشمولية والموضوعية والنظر الفاحص : وهي الإحاطة التامة بالمسائل والأمور المراد قياسها والنظر الفاحص فيها من موازنة الأمور، ثم الموضوعية والحياد التام دون التحيز والميل لأحد الأطراف أو التأثر ببعضها، والنظر الفاحص هو القدرة على الاستيعاب واستخراج العلل من

[١] القياس المراد به هنا هو القياس العقلي الفكري، وليس الشرعي الأصولي .

الأمور ومن ثم قياسها، فقدرة الاستيعاب مع دقة الملاحظة هما السلاح الذي يحول الأفكار من عالم الفكر إلى عالم الفعل . **أما أركان القياس :**

١و٢- الأصل والفرع : والأصل هو الذي يقاس عليه الشيء، والفرع هو المقيس على الأصل، وهما الشيئان اللذان تجمعهما علة القياس .

٣- العلم بالعلة : والتي من أجلها جعل القياس وكان النظر في الأمور ومن ثم موازنتها، وهي متعلقة بمدى مطابقة الوصف بين الأصل والفرع .

إذاً فلا قياس إلا بعد توفر عدة أمور وهي (الأصل والفرع والعلة بينهما) ولا يقيس إلا صاحب (العقل السليم والنظرة الفاحصة ذات الشمولية والحياد من عالم مدرك للعلة والمراد من القياس والغرض منه) وكل قياس خرج عن تلك المضامين والنطاقات والحدود هو قياس فاسد مردود لا ينظر إليه .

طرق القياس ومنهجه :

يكون القياس الصحيح بالبديهة والتجربة والحس والمعقول مع عدم إغفال الطرق الشرعية من حيث الاستدلال الصحيح والترجيح المقبول للأمور، واعتماد قوة الأدلة إذ هو أمر مهم .

فالمتواتر والمسلم به والبديهي والحسي والمشاهد والعقلاني والمقرون بالقرائن كلها أدلة قياس ذات منظور محدود ولكن دلالة ظنية لا قطعية، مع معرفة أنه يجب كونها متحققة وموجودة لدى الجميع بنفس القدر ودون أدنى خلاف بينهم .

٣- قوة الأدلة :

النظر في الأدلة وقوتها هو أمر مهم في أي مسألة أو أمر ما، وهو يكون بعدة أوجه كلها لا بد منه :

١- معرفة أن كل دليل له وجود في العقل والفطرة والحس السليمة قبل الشرع إذ الشرع وأوامره لا تخرج عن تلك النطاقات، وذلك لأنها مخلوقة ومصوغة بتوافق مع الدين والشريعة .

فالدليل الشرعي يعتمد مسبقاً على قوة حس موجودة لدى الإنسان وعقل وفطرة سليمين يقيمان حدود الدليل ويستسيغانه، ولا وجود لدليل شرعي يخالف العقل أو الفطرة السليمين، ولأن ذلك إن وجد فهو يعني ضعف حجته ومن ثم بطلانه .

٢- كل الأدلة الشرعية ذات قبول لدى الناس، وذلك لأن لها وجود مسبق في عقل الإنسان وفطرته السليمة وهي مشرعة من لدن حكيم خبير لكل المكلفين بنفس القدر والمعايير وذلك لأنها مبنية على اليقين التام .

٣- لا وجود للشك مطلقاً في مسائل اليقين التام، وكل الأدلة يجب أن تكون قاطعة الدلالة، والأدلة الظنية يكون مبدؤها مبنياً على ترجيح تم في المسائل والأمور، مع القدرة التامة للتفريق بين المتغيرات والتأثر بها .

٤- لا تفاوت بين الأدلة من حيث الدرجات، فالقطعي ثابت بالعقل والفطرة والشرع، ثبوتاً شرعياً قطعياً جازماً لأمر معين، والظني ثابت بالعقل والفطرة والشرع، ثبوتاً شرعياً قطعياً محتملاً لأكثر من حد، فهو قطعي الثبوت ظني الترجيح بين أمرين فأكثر[١] .

---

[١] الكلام هنا من وجهة نظر فكرية عقلية بحتة، وليس من وجهة نظر شرعية أصولية .

ترجيح الأدلة :

الدليل هو كل ما يثبت أو ينفي غيره بالنظر لما فيه، أما الحجة فهي كل ما يؤكد الشيء ويؤيد صحته، والبرهان هو كل ما رجح كفة الشيء على غيره أو أظهره .

وكل الأدلة والحجج والبراهين مآلها العقل، وذلك لأن خطاب الشرع كله موجه للعقل وبه يعتبر الشخص مكلفاً، وهذه الأدلة منها ما هو موجود لدى جميع الناس بنفس القدر ومنها ما هو موجود بمقادير معينة ومتفاوتة الدرجة بينهم (من حيث الاستيعاب والفهم) .

وكل الأدلة والحجج الشرعية منزلة إلى الجميع بنفس الدرجة والمقدار ولا فرق بين أي اثنين من الخلق، ومنه ما تجلت الحكمة من تشريعه للناس ومنه ما لم تتجلى الحكمة منه للناس و لم تظهر .

درجة بعض الأدلة :

للأدلة وللاستدلال بها عدة درجات كلها موجود في صميم العقل والفطرة والحس، ومنها :

١- العقلي : هو كل دليل مرجعه العقل البشري السليم والفطرة السوية والحس الصافي إذ هو متواجد بداخلهم، وهو دليل معتبر منطقياً في حدود العقل والاستدلال به حجة، ولا تتعارض دلالة العقل مع أدلة الشرع إذ هما "العقل والشرع" في الأصل ينبعان من منبع واحد ويهدفان لغاية واحدة .

٢- البديهي : وهي أدلة مبناها على البساطة في الاستنباط من حيث إن معرفة الشيء تفهم مباشرة وبمجرد بيانه ودون الحاجة إلى توضيح أو بيان، وهي أدلة معتمدة لمعرفة الشيء فقط أو لإثبات الشيء أو نفيه .

٣- المجرب : وهي الأدلة التي تعتمد على التجربة والنتائج، وهي أدلة معتبرة من حيث التجربة العامة، ولكنها لا تعمم لاعتماد احتمال تغيّر النتائج لتجارب أخرى مشابهة .

٤- المتواتر "المسلم به": وهي الأدلة التي توصل إليها من هم قبلنا، ونحن نسير عليها كشيء مسلم به من قبل ولا يحتاج له تثبت من جديد، وهي معتبرة مع بعض التحفظ الذي قد يظهر ويستجد .

٥- الحسي : وهي الأدلة الحسية والتي تلاحظ بالحس والملاحظة كالحواس (السمع والبصر ...) وهي معتبرة وذات قوة واعتماد .

٦- المشاهد : وهي الأدلة المشاهدة بعين البصر المقترنة بعين البصيرة، وهي قطعية الدلالة من حيث حصول الشيء أو عدم حصوله .

٤- القيم :

الأصل أن لدين الإسلام وشريعته السمحة مبادئ ترتكز عليها وتعتبر من أسس هذا الدين الحنيف، وهي تحقق للإنسان أفضل نظم الحياة وتحفظه من كل ما يحيط به بل وحتى من نفسه وهي تسعى لصقل جوهره ولجعل كيانه مستقلاً ذا فردية نزيهة بعيداً عن كل الشهوات والشبهات والنزوات النفسية والنظرات الأنانية الضيقة التي تنظر بعين واحدة ولا تزن

الأمور بميزان الاعتدال . وهي مبادئ شاملة ذات عمومية لكل زمان ومكان وبيئة وطائفة فهي نظم عالمية ذات شمولية تتماشى مع كل الأوقات والمجتمعات ليست قاصرة على تحقيق مصلحة قوم دون آخرين .

وهي مبادئ اجتماعية عميقة الرسوخ في النفس وفي تطبيقها يتم سعادة الفرد والمجتمع لأنها تناسب كل البشر ولأنها لا تنظر لقوم دون آخرين و لم تخصص لنفع فئة دون أخرى أو نفع قوم بضر غيرهم .

وهذه المبادئ تتناسب مع النظم والقوانين الإنسانية العقلية المنطقية الصحيحة لأن بينهما توازناً كبيراً، وهي مبادئ لا تتغير ولا تتبدل ولا تتأول وإنما تطبق وتحقق، والتأويل في حقها يعني التعديل وهذا يعني أنها غير شاملة وأنها قاصرة على فهم بعض العقول دون سواهم وهذا هو الخطأ الشائع وهو مقولة (إن لكل كيان نظرة) . والنظرة القاصرة على شهوات النفس البعيدة عن المنطق والعقل هي نظرة بهيمية ليست ممحصة ولا محققة وإلا لكانت قد رأت المبادئ على حقيقتها واضحة صحيحة .

واعتماد الكثير على وجهات النظر السقيمة ولا سيما الناقدة دون معرفة الهدف الحقيقي منها والتي غالباً ما ينتج عنها فكر ملوث ومخلوط بالآثار السيئة والعقد النفسية الشخصية وكأن الكون كله جمع في رأس رجل واحد صاغ لنا نظاماً كاملاً شاملاً كنظرية ماركس الشيوعية .

ولذلك فلا بد وأن تكون هذا المبادئ عالمية شمولية كاملة متوازنة لكل عالم البشر بأن تتضح منافعها وتظهر لجميع العقول البشرية، ومن جملة تلك المبادئ :

١- الحرية : هي حق بشري طبيعي موجود في كل إنسان مضـــمونها وهي تمتع الإنسان بالفردية وتميزه عن غيره دون ضرر له أو لمن حولـــه، والحرية الحقيقية هي تصرف الإنسان كيفما شاء وتمتعه بالحكم على كل تصرف له والاستمتاع بذلك بشرط وهو عدم إلحاق الضرر بنفســـه أو غيره ولا سيما مجتمعه بأسره .

ولذلك لربما اعتقد الكثير وظن أن الحرية جعلت فقط لنفســـه دون غيره فيراعي مصلحة نفسه دون أن يراعي مصالح الآخرين فلربما نفع نفسه بمضرة غيره، وهذه هي الحرية الزائفة أو مفهوم (الأنانية) .

والفرق بين الحرية الحقيقية والحرية الزائفة هو أن الزائفـــة هـــي في حقيقتها (استغلال ولا مبالاة) فمصلحة النفس هي المطلوب من منظورها حتى وإن كان ذلك ينتج عنه مضرة الغير . ولذلك فلا يسع أحـــد مـــن الناس يدعي الحرية الحقيقية ويريد في نفس الوقت أن ينشر فكرته ويعمم مبدأه الشخصي على العالم أجمع وأن يأخذوا به، فلكل فرد شخصية وله أن ينعم بما يراه في مصلحته دون أن يضر بنفسه أو بغيره، ولـــه أحقيـــة تعميم فكرته إذا كانت ذات منظور شامل ومنطقي ينبع مـــن الشـــريعة السمحة كقيم الأدب والحب والتآخي وغيرها، وهنا تكمن جودة التفكير وقوة الاستيعاب والإدراك ودقة النظر الفاحص وسلامة السريرة وحســـن الأخلاق ...

٢- المساواة : وهي أيضاً حق بشري طبيعي موجود في كل إنســـان وتعني إتاحة الفرص للجميع بنفس الكم والكيف وهي بالتحديـــد غايـــة

الحرية لأنه ليس لأحد فضل على سواه مهما بلغ إلا في نفع المجتمع، فالكل سواء ولهم نفس القدر من كل شيء وفي كل شيء . والمساواة موجودة في كل الناس وكل إنسان يشعر أنه مثيل الآخرين وليس لقول أحد أو فعله أو تفكيره فضل على غيره إلا بمدى نفعه للمجتمع .

فقدر الإنسان يعد بقدر مشاركته الاجتماعية ومحاولته في رفعة شأن الإنسانية أجمع . وهنا يظهر الفارق بين القدرات العقلية والنظرات الإنسانية ويتضح تفاضل الناس ولا سيما في طريقة التفكير .

ولكن ومع الأسف استولت الفردية والانتهازية اليوم في الكثير من المجتمعات وأصبحت تسيطر على نظام الكثير منها، وهو نظام ضيق الأفق أناني حقير يحتكر الفرص ويتيحها لقوم دون آخرين، وهو بذلك يطمس حق الكثير ممن له حق في المجتمعات ويكتم أصواتهم ويضيع حقوقهم، فهو نظر فاسد حاقد قام في الأصل على أفكار غلط ونظرات بهيمية أنانية بحتة على أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات، وليس على أساس التساوي الحقيقي إذ الكل يقول ويفكر ويعمل والرفعة والعلو لمن نفع مجتمعه وشارك في تحقيق التقدم للإنسانية، وهي ذاتها المساواة الحقيقة .

٣- العدل : وهو كلمة تدل على المبدأ قبل مدلولها على الأشخاص والعدل كما قيل أساس الملك وأساس كل نظام وأصل كل المفاهيم المنطقية الصحيحة، فليس يقوم أي أمر أو يدوم إلا بالعدل .

والعدل هو النظر النزية السليم المتزن البعيد عن التحيز وعدم إغفال أي أمر يقدح في العدالة، فليس لمقعد أو لنظام أو لمنصب أن يتجاوز

النظام وهم في الأصل تحت النظام، فكسب الثواب والعقاب يكون بمعرفة الفعل ومدى ضرره ونفعه على المجتمع دون مراعاة لطبقية أو لشخصية أو لأمر ما . والعدل وضع الشيء في موضعه المناسب للزمان والمكان فلكل أمر ما يناسبه دون تغيير القيم الأصيلة والمفاهيم الحقيقة .

٤- النظام : لكل دين نظام يسمى شريعة أو منهج، وهي طريقة وأسلوب وسلوك معين يتبع لبلوغ المراد، والذي به تتقدم الإنسانية . والنظام هو أساس القوانين والمفاهيم السليمة . فمثلاً كل فرد وله حرية ومجموع الأفراد في المجتمع بينهم مساواة والجميع تحت العدل وعليه وجب وأن يكونوا سواء أمام النظام فيطبق على الجميع بنفس القدر وعليه وجب تطبيق الجزاء لكل خارج عنه بقدر خروجه عن النظام وتخطيه . فالجزاء كما قيل من جنس العمل والذي وجب التأديب المناسب والردع المقنن بحسب الجرم الذي به تم تجاوز خطوط النظام الحمراء .

ونظام الإسلام شامل للجميع ومستوعب للكل وكل مفاهيمه وقيمه ومبادئه وأصوله التي يحتويها نظامه هي في الحقيقة متحققة في تطبيق شريعته السمحة ومنهجه القويم . نظام سليم ومنهج قويم وشريعة سمحاء لكل الناس ولكل وزمان ومكان .

٥- التكافل الاجتماعي : هو التعاون والتكاتف والتماسك في حقيقة جوهره، وهو من أدوات تقدم المجتمع ودفع عجلة التقدم والتطور وعلو شأنه، وهو رباط من أربطة المجتمعات ومن أقوى العوامل التي تعين على إلغاء الرغبات والشهوات الشخصية القاصرة على الإنسان وحده . وفي

تطبيق التكافل وتحققه في أي مجتمع تظهر فيه كل مظاهر القيم السليمة وعلى رأسها ظهور قيم الحب الخير والخلق والأدب، واختفاء لقيم الشر والجريمة ودحضاً للأنانية .

والتكافل لا يكون إلا بأخذ الإنسان على يد أخيه الإنسان والسعي قدماً لتحقيق الأهداف النبيلة والقيم العليا الرفيعة . ومعرفة أن أي مبدأ للتكافل إنما هو في حقيقته رفعة للمجمع بأسره، وفي المحصلة النهائية للإنسانية جمعاء .

٦- الإخلاص والإتقان : والنزاهة والأمانة قيم عظمى، فما من شك أن معظم القيم الأصيلة هي قيم ذات وجهين وجه ظاهر ووجه باطن، لأنها دائماً تهتم بإصلاح الفرد من الناحيتين الروحية والمادية، وذلك كله لا يكون ولا يتحقق إلا بالإخلاص والإتقان فعلاً، والإخلاص إذا تحقق في مجتمع ما كان ذلك المجتمع ناجحاً فعلاً وهو الأمر نفسه الذي يسوق المجتمع لأن يكون متقناً في عمله وتعامله عموماً .

والإخلاص والإتقان يعدان من ضوابط النفس والمجتمع بشكل عام لأنهما يجعلان الفرد يتخلص من أحقاده وحبه لنفسه وتفضيله لذاته وبالتالي فهما يقضيان على الأخلاق غير السوية جملة وتفصيلاً .

وإجمالاً :

في التمسك بالدين والشرع القويم **غنىً** تاماً كل الغنى للفرد والمجتمع عن التخوض والبحث والتقصي في كل الأمور الفكرية السابقة الذكر في كتابنا هذا .

وعليه فالواجب على كل مسلم هو التمسك بالدين وأوامر الشريعة السمحة، كما جاءت وفي نفس الوقت ترك كل ما سواها، ولا سيما الفكر وخصوصاً في واقعنا المعاصر والذي كثر فيه الفكر الهدام والمنحرف والمشوش والمشوب والملوث بكثير من الأفكار الضالة والمبادئ الغربية واللا دينية .

وحتى الفكر الصحيح أصبح مشوشاً ومشوباً بالكثير من المبادئ والأفكار الدخيلة عليه وغير الصافية المنبع مما أشكل على الكثير وبالأخص طبقة العامة من الناس والسواد الأعظم منهم فخلطوا بين الصحيح والخاطئ والحق والباطل .

ولذلك كان طريق الدين أقصر الطرق وأسهلها الموصلة إلى السعادة التامة في الدارين، فحسبك به طريق سلامة وبلغة ولا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الفتن .

ولنتذكر قوله ﷺ لعقبة بن عامر رضي الل تعالى عنه لما سأل : يا رسول الله ما النجاة، فقال ﷺ : (**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**)[1].

[1] رواه الترمذي وأحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب . وفي رواية (أملك عليك لسانك) أي : احفظه . وما النجاة أي : ما الطريقة للنجاة من الهلاك .

الخاتمة

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه وحده هذا الكتاب والـــذي استعرضت فيه عدة طبقات من المجتمع ومدى تأثيرها فيـــه أسأل المولى عز وجل التوفيق والسداد والهداية والرشاد .

ولله تعالى الحمد والمنة والثناء الحسن

د . خالد بن محمد عطيه

الطبعة الثانية في ٢٠/ ١٠ / ١٤٢٧هـــ

مكة المكرمة ص ب : ٤٣٨٢

جوال : ٠٥٠٤٧٩٩٥١١

الفهرس

المقدمة ٤

الباب الأول : الطبقات

مدخل ٧

مقدمات ٩

حقيقة الفكر ١١

طرق الاتصال بالعالم الخارجي

(العقل، القلب، النفس، الجوارح) ١٢

شخصية الإنسان ١٣

العوامل المؤثرة فيها ١٤

رقي الشخصية ١٤

الشخصية الكاملة "العظمة الإنسانية" ١٥

استيعاب الغير ١٨

إدراك الحقائق ١٩

منهج الحقائق ٢٢

حرية الرأي ٢٥

الواقعية ٢٧

دور التربية ٢٨

الفصل الأول : طبقات المجتمع المهيمنة :

النظريات في غياب الدين ٣١

الفلاسفة ٣٣

الملاحدة (الماديون الروحانيون).....٤٢
المشركون ٥٩
الحلوليون ٦٦
الألوهية والربوبية ٧٢
الواقع المعاصر ٧٨
بلاد العرب ٨٠
صراع الأحزاب ٨٣
النقد السلبي "انتقاص الغير" ٨٥
الفصل الثاني : طبقات المجتمع المؤثرة :
المفكرون ٨٩
الحكماء ٩٨
التربويون ١٠٤
العلماء ١١١
الفقهاء ١١٨
الأئمة والدعاة ١٢٥
المنهج القويم ١٣٤
الباب الثاني : الفكر
الفصل الأول : الدين والعلم :
علم الطبيعة ١٣٨
علم ما وراء الطبيعة ١٣٩
علم المنطق ١٤٠
علم النفس ١٤١

علم الأخلاق ١٤٢
علم الاجتماع ١٤٣
علم القانون ١٤٤
الدين والعلم ١٤٤
الفصل الثاني : العقل والقيم :
١- التأويل ١٤٨
٢- القياس ١٥٠
٣- الأدلة ١٥٢
٤- القيم : (الحرية . المساواة . العدل . النظام
التكافل الاجتماعي . الإخلاص والإتقان) ١٥٤- ١٥٩
وإجمالاً ١٥٩
الخاتمة ١٦١
الفهرس ١٦٢